

جامعة مؤتة

عمادة الدراسات العليا

النفط وأثره في التغير الاجتماعي من خلال نماذج روائية

إعداد الطالبة

صفاء سامي الشمايلة

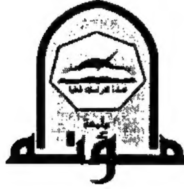
إشراف

الأستاذ الدكتور محمد الشوابكة

رسالة مقدمة إلى عمادة الدراسات العليا
استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة
الماجستير في الأدب قسم اللغة العربية وآدابها

جامعة مؤتة، 2006

بسم الله الرحمن الرحيم



MUTAH UNIVERSITY
Deanship of Graduate Studies

جامعة مؤتة
عمادة الدراسات العليا

نموذج رقم (14)

إجازة رسالة جامعية

تقرر إجازة الرسالة المقدمة من الطالبة صفاء سامي الشمايلة الموسومة بـــ:

النفط وأثره في التغير الاجتماعي من خلال نماذج روائية

استكمالا لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في **اللغة العربية.**

القسم: اللغة العربية.

	التوقيع	التاريخ	
أ.د. محمد علي الشوابكة		2006/7/24	مشرفاً ورئيسا
أ.د. سامح عبدالعزيز الرواشدة		2006/7/24	عضواً
د. سمير بدوان قطامي		2006/7/24	عضواً
د. طارق عبدالقادر المجالي		2006/7/24	عضواً



عميد الدراسات العليا
أ.د. أحمد القطامين

MUTAH-KARAK-JORDAN
Postal Code: 61710
TEL :03/2372380-99
Ext. 5328-5330
FAX:03/ 2375694
e-mail: dgs@mutah.edu.jo sedgs@mutah.edu.jo
http://www.mutah.edu.jo/gradest/derasat.htm

مؤته – الكرك – الاردن
الرمز البريدي :61710
تلفون :03/2372380-99
فرعي 5328-5330
فاكس 03/2 375694
البريد الالكتروني
الصفحة الالكترونية

الإهداء

إلى من أوصاني الله بهما خيرا (ووصينا الإنسان بوالديه إحسانا) إلـــى أمي وأبي

أمي التي أتعبها التعب .... وأضناها الأمل ... وتمثلت رسالتي قبـــل أن أتمثلها حدسا وتفكيرا... وتأملا ... وتأيدا ... أهديها هذا العمل .

أبي الذي تحمل وتأمل وأسند خطواتي كلما مالت بي الدرب ...إلى أبـــي الذي ما قصر .

أهدي عصارة جهدي لعلي أزيل للحظة تعب الأيام وسهر الليالي .

فلهما حبي واحترامي وتقديري وعرفاني .

صفاء الشمايلة

الشكر و التقدير

للدكتور محمد الشوابكة الذي أولاني كل رعاية واهتمام خلال كتابتي لهذه الرسالة التي كانت ثمرة وامتداداً لما درست على يديه في مرحلتي البكالوريوس والماجستير، فلم يأل جهداً في حثيِّ حيناً ودفعي حيناً آخر للجدَّ في البحث والاطلاع، فكان مثله مثل الأب الحاني الذي ما فتئ يراعي مصلحة أبنائه ، وإن قلمي ليعجز عن إيجاد الكلمات المناسبة لتقديم الشكر والعرفان بالجميل ، فلا أملك إلا أن أدعو الله عز وجل أن يأخذ بيده ويسدد خطاه، فجزاه الله عني خير الجزاء .

كما لا يسعني إلا أن أتقدم بجزيل الشكر والعرفان للأستاذ الدكتور سمير القطامي أستاذ الشعر الحديث في الجامعة الأردنية الذي تجشم عناء السفر وتفضل مشكورا بقراءة عملي هذا ومناقشتي فيه . وأقول له : قدمت أهلا وحللت سهلا في جامعة مؤتة .

وللأستاذ الدكتور سامح الرواشدة عميد كلية الآداب وأستاذ الأدب الحديث في جامعتنا كل الشكر والتقدير لاطلاعه على دراستي هذه وإدلائه بالملاحظات القيمة التي سآخذ بها لا محالة . فما انفك يوليني الاهتمام والرعاية منذ دراستي الجامعية الأولى .كما لا أنسى الجهد الذي بذله الأستاذ الدكتور طارق المجالي في قراءة هذه الدراسة وإثرائها بخبرته النقدية والأدبية ..فجزاه الله عني كل خير .

وسدد الله خطى الجميع على طريق الخير .

صفاء الشمايلة

فهرس المحتويات

الملخص

النفط وأثره في التغير الاجتماعي من خلال نماذج روائية

صفاء الشمايلة

جامعة مؤتة-2006

تهدف هذه الدراسة إلى تحليل الروايات العربية التي اهتمت بالنفط من حيث رصدها لحياة المجتمعات العربية قبل النفط ثم ما طرأ على هذه الحياة من تغير حاد مسَ الجوانب المادية بشكل خاص كما لامس بعض النواحي المعنوية .

وقد جعلت الرسالة في خمس فصول وضعت الفصل الأول تحت عنوان (المجتمع العربي قبل النفط) وهو يتطرق إلى شكل الحياة العربية قبل النفط . وأما الفصل الثاني (الفعل ورد الفعل) فيحاول تحليل ردود أفعال الناس تجاه الأجنبي الذي جاء منقبا عن النفط . ويناقش الفصل الثالث (الاغتراب والازدواجية) آثار النفط في الحياة العربية أما الفصل الرابع وهو فصل (الطبقية) فهو يتحدث حول الطبقات الاجتماعية أو الشرائح الاجتماعية التي افرزها الغنى . أما الفصل الأخير فيتحدث عن المرأة النفط على حياتها .

وقد اتكأت على منهج وصفي تحليلي ينطلق من النص الروائي ، مع الاعتماد على بعض الدراسات من علمي الاجتماع والنفس الاجتماعي .

تعرض الروايات التي تناولتها وبأساليب مختلفة حياة المجتمع العربي قبل النفط وبعده

تناقش هذه الرسالة من خلال فصولها الخمسة مدى الهوة التي أوجدها النفط وملاحظة ما الذي تغير على البشر بعد ظهور النفط . التغير حاصل والاختلاف موجود .تغير في الشكل وتغير في الهيئة وتغير في النفسية ، لكن هل تغير العقل ؟ هل تغير التفكير ؟ هذا ما تطرحه فصول هذه الرواية التي انقسمت إلى فصول تحدثت عما كان قبل النفط وأخرى عن فترة ظهور النفط وثالثة عما ترتب على ظهور النفط.

Abstract

Oil and its effect in social change through types of novels

Safa shamayleh

Mu'tah university, 2006

This study tries to analyze some selective Arabic novels that deal with oil issue. These novels uncover that oil affects the Arabic life from some aspects, but it does not leave a concrete impact en the Arabic way of thinking this traditional ideas, thoughts and values remain as they were. The novels under consideration raise such several questions as does oil change the social structure in the Arabic societies ?

What are the positive results that oil leave on the Arab societies ? Are there any differences between life before the discovery of the "oil" and the life which came after ? To what extent does the oil affect the psychological status of the indvidiuats in the Arab word ? can we consider that alienation classes and doute standard , as results of oil discovery ?

This study discusses these questions and this study relating to woman situation on the other hand this study uses descriptive and analytical approach together with employing sociology and social psychology.

الفصل الأول

الحياة العربية قبل النفط

1.1مقدّمة:

فقد احتل النفط أهمية بارزة على المستويين العالمي والعربي؛ لما فيه من فائدة كبيرة في تسيير عجلة الحياة المعاصرة. وقد ترك النفط، ولا يزال، بصمات بيّنة في الحياة العربية المعاصرة لما جلبه من منافع مادية لا يمكن إنكارها. لقد دأبت الرواية العربية منذ تأصلها ونضجها على التعبير عن الآفاق الاجتماعية والسياسية والاقتصادية؛ فعبّرت عن هموم الأمة، وآمالها وطموحاتها، وكشفت عن البنى الاجتماعية، وعرت كثيرا من مظاهر الحياة، فأعادت بذلك صياغة الواقع، وعرضت لمسائل متعددة كالطبقات الاجتماعية والصراعات الحضارية والريف والمدينة ووضع المرأة...الخ. بيدَ أن النفط لم يحظَ بالاهتمام الذي يستحق مقارنة بالآثار التي يتركها؛ إذْ لم يلتفت إليه إلا قلّة من المبدعين العرب: ولعلّ من أقدم الروايات العربية التي جعلت النفط محورا لها" شمروخ" لمحمود تيمور، ثمّ تلتها بعض الأعمال مثل" السقوط إلى أعلى" وهي جزء من ثلاثية الروائي السوري وليد حجّار الموسومة بـــ " ثلاثية البحث عن الأنا"، وهي تتألف بالإضافة "السقوط..." من " رحلة النيلوفر" و" مسافر بلا حقائب"، والحقيقة أن هذين الجزأين لم يتعرّضا لمسألة النفط. ثمّ ظهرت بعد ذلك "مدن الملح" في فترات متباعدة نسبيا، وتلا ذلك " قدح من نفط" لمحمد سلام جميعان، " ورسمت خطّا في الرمال" لهاني الراهب. وثمة بعض الروايات العربية التي احتفلت بالصحراء كـــ" نجران تحت الصفر" ليحيى يخلف، " ورجال في الشمس" لغسان كفاني وبراري الحمّى لإبراهيم نصر الله... غير أن النفط لم يشكِّل همّا لكتّاب هذه الروايات.

وقد لاحظتُ أن النفط، بوصفه موضوعا روائيا، لم يجد الاهتمام الذي يستحق من الباحثين والنقاد، وليس هنالك، في حدود ما أعلم، إلا دراسة واحدة للدكتور محمد الشوابكة بعنوان" النفط والتحول الاجتماعي في رواية" مدن الملح" لعبد الرحمن منيف"،

نشرت في مجلة دراسات(الجامعة الأردنية)، وقد تناول فيها الدكتور الشوابكة الآثار المترتبة على تدفق النفط كالازدواجية والاغتراب والطبقية. ولكن هذه الدراسة لم تشر إلى سائر الأعمال التي جعلت من النفط محورا رئيسا لها. ومن هنا تأتي هذه الدراسة مكمّلة لجهد أستاذي الذي أفدت منه أيما إفادة من حيث المنهجُ والمراجع ومفردات الدراسة.

تهدف هذه الدراسة إلى تحليل الروايات العربية التي اهتمت بالنفط من حيث رصدها لحياة المجتمعات العربية قبل النفط، ثم ما طرأ على هذه الحياة من تغيّر حادّ مسّ الجوانب المادّية بشكل خاص، كما لامس بعض النواحي المعنوية، فحاولت أن أرصُدَ بعض الآثار المترتبة على ظهور النفط ــ كما عُبِّرعنها من منظور فنّيّ: فتحدّثت عن الآثار العامّة الاجتماعية والنفسية كمسائل الاغتراب والازدواجية وظهور الطبقات، وأفردت فصلا قصيرا لوضع المرأة العربية في ظل هذه الأوضاع الجديدة. وقد حاولت قبل ذلك أن أحلل بدايات اكتشاف النفط وردة فعل الإنسان العربي للوجود الأجنبي. وقد عمدت إلى الحديث عن ذلك من منظور روائيٍّ، ولم احتفل كثيرا بالوثيقة التاريخية إلا بالقدر الذي يخدم أهداف دراستي. كما أنني لم أتعرّض للمسائل الفنية إلا إذا اقتضت الضرورة ذلك؛ وذلك لأن بعض هذه الروايات دُرِسَ من حيث التقنيات السردية، وزيادة على ذلك فإنّ موضوع هذه الدراسة يدفعني إلى الالتزام بمناقشة مسائل المضمون والأفكار حسب. وقد واجهتني بعض صعوبات تتمثل في قلة الدراسات في هذا الموضوع؛ لأن الباحثين تناولوا بعض هذه الأعمال من زوايا التشكيل الفني والملامح الملحمية وبناء الزمن والمكان والشخصية، ولذلك عمدت إلى النصوص ذاتها محاولة استنطاقها على وفق قدرتي وقراءتي للدراسات التي احتفلت بالمضامين الروائية.

وقد اتكأت على منهج وصفيّ تحليلي ينطلق من النص الروائي ذاته، وإذا وجدت ما يدعم بعض الأفكار فإنني أفيد منه وإن كان في سياقات مختلفة، كإفادتي من بعض

الدراسات التي عُنيت بالاغتراب والتي عولت على علمي الاحتماع وعلم النفس الاجتماعيّ.

وقد جعلت هذه الدراسة في خمسة فصول: تطرقت في الفصل الأول (المجتمع العربي قبل النفط) إلى شكل الحياة العربية قبل النفط من النواحي الاجتماعية والاقتصادية والسياسية؛ كيف كان يعيش الناس؟ ما شكل منظومة القيم والعادات؟ ما القواعد التي تتحكم في سلوك الناس؟

أما الفصل الثاني(الفعل وردة الفعل) فيحاول تحليل ردود أفعال الناس تجاه الأجنبي الذي جاء منقّبا عن النفط، كيف نظر الناس للآخر؟ ما الاتجاهات العامة لهم، هل قبلوا الآخر أم رفضوه؟ هل كانت ردود الأفعال المعارضة سلمية أم اتخذت شكل المقاومة المسلحة؟. ويناقش الفصل الثالث(الاغتراب والازدواجية) آثار النفط في الحياة العربية: تغيّر البنى التحتية وتأثير ذلك في القيم والعادات، ما الذي أصاب الحياة من تطور مادي؟ وهل انصرف هذا التطور إلى العقلية العربية؟ لماذا سقط كثير من الشخصيات في حبائل الاغتراب؟ كيف يستطيع الإنسان الجمع بين القيم العلمية والمفردات التكنولوجية من جهة، والقيم المعنوية والمخلفات القديمة من جهة أخرى. وتمثل الطبقية إحدى النتائج البارزة التي ترتبت على ظهور الثروة النفطية، وهي المسألة التي يناقشها الفصل الرابع، حيث يتمحور السؤال حول الطبقات الاجتماعية أو الشرائح الاجتماعية التي أفرزها الغنى، ومدى الوعي الطبقي عند الناس. وقد أفردت الفصل الخامس للحديث عن المرأة: كيف كان وضعها قبل النفط، وكيف أصبح وضعها بعده؟ ما مدى مساهمتها في الحياة العامّة؟ هل تشارك في صياغة الحياة الجديدة أم أنها ما زالت تعيش في عصر الحريم؟

وبعدُ،

فقد حاولت أن أمتحن النصوص الروائية بقراءة أظنّها متأنية لمناقشة المفردات التي ذكرتها، فإن وفّقتُ فهذا فضلٌ من الله، عزّ وجلّ، وإن قصّرتُ فعذري في تقصيري أنّني بذلت غاية الجهد.

الحياة العربية قبل النفط

إذا ما نحينا النصوص موضوع البحث جانباً – إلى حين – فإن القارئ يستطيع أن يكوّن بسهولة متناهية صورة عن حياة المجتمع العربي قبل تفجُر الثروة النفطية. ففي الصحاري الفسيحة الممتدة لا تعثر إلا على كثبان رملية متحركة تزيد من معاناة الإنسان فضلاً عن حرارة الشمس الملتهبة التي تكوي الأجساد. بيد أن هذا الأمر ليس مطلقاً ينصرف إلى أرض النفط كلها. فثمة واحات مبعثرة في أنحاء الصحراء، ولا سيما الجزيرة العربية، وقد أثرت هذه البيئة على الإنسان من الناحية الجسدية والنفسية وأسهمت في تشكيل قيم وعادات ومسالك خاصة بإنسان الصحراء. وزيادة على ذلك حددت مسيرة الحياة الاقتصادية والسياسية في هذه البقاع الشاسعة.

ولا يخفى على القارئ أن التفكير القبلي كان هو المسيطر، فالترحال المستمر وحاجة الإنسان إلى أخيه الإنسان أوجد – كما هو معروف – قيم الكرم والتكافل وحماية الجار والغيرة على المرأة والفروسية... إلى غير ذلك. فمن الناحية الاقتصادية كانت الحياة تعتمد على الرعي وتربية الماشية حيث يعيش الناس على مشتقات ما تنتجه هذه الحيوانات، وزيادة على ذلك كانت هناك واحات من النخل الذي يسهم في تأمين المواد الغذائية الضرورية، ولكن ذلك كله لم يكن ليكفي. فكان الناس يرحلون إلى الدول المجاورة واستيراد المواد الغذائية والملابس منها. أما من الناحية السياسية فيمكن القول بإيجاز شديد أن النظام السياسي نظام قبلي يتحكم شيخ القبيلة بأمور القبيلة، ويكلف أتباعه تحمل بعض المسؤوليات. وبالتأكيد تفتقر مثل هذه الأنظمة إلى المؤسسات السياسية مما انعكس على البنى الثقافية، فكان بناء المدارس والتعليم وطلب العلم والقراءة واقتناء الكتب ــ أمورا استثنائية... كيف كان الناس يعيشون قبل سيلان الذهب الأسود وما الذي جعل البدو حضراً ؟

لقد كان المركب جملاً أو حماراً وسوق الحلال بؤرة التجمع. هل معنى البداوة قبل النفط يختلف عنه بعد النفط ؟ هل البدوي الأول هو نفسه البدوي النفطي؟ ومن هنا

سأجعل الكلام مقتصراً على حياة ما قبل النفط في تلك المجتمعات البدوية من منظـور روائي، ومهما يكن فإنّ بعض الدارسين يرون أن "البداوة تعني الاكتفاء بالضروري من أسباب المعاش لأن حياتها تقوم على الترحال وعدم الاستقرار وترتب على ذلـك أن سكن البدوي العربي الخيام واتخذ من الحيوان الإبل والخيل والغنم والضأن- عوناً له وذلك لقدرة هذه الأنعام على الرحلة معه في بيئته الصحراوية " (1).

لا تختلف حياة البداوة في طبيعتها بـاختلاف الأمـاكن وإن ظهـرت بعـض الاختلافات فهي اختلافات سطحية تفرضها طبيعة المنطقة، أما البداوة فهي واحدة في كل مكان." حتى البدو

الذين استقروا وتحضروا فإنهم لم يتخلوا عن بداوتهم كانت الإبل في ساحات الـدور وعند أبوابها وكانت الخيام إلى جانب الغرف الطينية والحطب يتجمع في جانب مـن الساحات الكبيرة والتي حفرت فيها المواقد، وظهر تغير بعيد في الجانب الآخـر مـن الساحات والمطابخ.أما تلك الأطراف المائلة في جوانب البيـوت فقـد أعـدت لـذبح الخراف، ولذلك تظهر آثار الدماء اليابسة والتي تحولت إلى اللون البني المقشور"(2).

وعند الحديث عن شكل المجتمع الروائي قبل النفط، يمكن توصيف الموضـوع ضمن ثلاثة محاور: الاقتصادي والاجتماعي والسياسي، وسأبدأ بالوضع الاقتصادي:

لقد تركز الاقتصاد قبل النفط على ثلاثة عناصر وهـي: الرعـي والزراعـة والتجارة.

كان المجتمع قبل النفط مجتمعاً بدوياً قبلياً وكانت هذه القبائل تعيش حياة بسيطة؛ تسكن بيوت الشعر، وثروتها الوحيدة الإبل والأغنام وطعامها التمر واللبن على مـدار السنة (3).

تعرض بعض الراويات وبأساليب مقتضبة موجزة حياة المجتمع العربي قبـل الـنفط وتعوّل على الحذف في كثير من الأحيان بيد أن القارئ يستطيع من خلال لجوء بعض الروايات إلى تقديم شخصيات عاشت الفترتين أن يسجل بعض ملامح المجتمع العربي قبل اكتشاف النفط.

تشير رواية " السقوط إلى أعلى " إلى وضع المجتمع العربي قبل اكتشاف النفط من خلال المقارنة بين الماضي والحاضر، وتقع هذه الرواية في أربعمائة وتسع وثلاثين صفحة لجأ الكاتب فيها إلى طريقة تذكر بأسلوب كتابة المسرحية؛ إذ قسمها إلى ستة أقسام ووضع في كل قسم فصولاً تتفاوت من حيث العدد والطول، ولعل هذا التقسيم تطلبته طبيعة الرواية التي اتسعت فيها الرقعة الجغرافية التي تنقلت فيها شخصياتها كثيراً لتشمل مناطق تمت تسميتها: كفرنسا وإيطاليا وإسبانيا وإنجلترا وسويسرا وسوريا ولبنان ومصر، ومناطق أخرى ذكرت دون تسمية واضحة، الصحراء، البر، الشرق، " المزيد من الشرق "... الخ.

وننطلق من الإشارة الأولى في الرواية إلى اكتشاف النفط في رسالة فراس إلى صديقه الفرنسي " راوي القصة:

" في وسط الصحراء... في وسط ألوف السنين من صمت عميق يؤنسه خرير جدول آمن في واحة وديعة وارفة، تمخض الجهل عن شيطان نبش في الأرض ثروة فأقام الدنيا و أقعدها،لطخها من عرقه قذارة، ومن دمه عاراً، ومن زبده فسقاً وكذباً ومجوناً"(4).

تلخص لنا هذه الفقرة وبشكل مكثف المعنى الذي نريده؛ فالصحراء كانت قبل النفط تاريخاً هادئاً يمتد آلاف السنين، وثمة صمت وأمن ووداعة وخرير: " ساحرة بكر "، ثم يأتي ما يكشف عما يتسم به إنسان هذه الأرض. أقصد الإنسان الجديد، يأتي النفط فيقلب حياة الإنسان رأساً على عقب، يغير السلوك الآدمي البكر البريء إلى سلوك كاذب فاسق ماجن، كما سنرى في آثار النفط – ويغير المكان فيكون النفط قذارة لوثت طهارة الصحراء.

البداوة والبدائية ــ كما يشي النص – تهيمنان على الحياة فالناس يعيشون ببساطة تكفيهم ما تنتجه الأرض والماشية، ولم يقتصر هذا الأمر على المحكومين ــ إذ غالباً ما يوجد شيوخ وحكّام ـــ.. وإنما شمل السلاطين، وتحدثنا الرواية عن حياة " هلال " هذا الأمير الصحراوي مازجةً كالعادة بين الماضي والحاضر:

"ولد بين جدران قلعة كبيرة من طين – شب على الرمال بين قوم سعيد منهم من لبس حذاء – حتى إذا أغدقت الطبيعة من ثروتها على والده الشيء الهائل، ناب أمه وهي المحظية الأولى لدى السلطان من الثراء الشيء الكثير"(5).

إذن بيت الأمير من طين، ولا يجد حذاء يلبسه، يلعب على الرمال؛ لأنها تسليته الوحيدة، ولدى أبيه من المحظيات الكثير. هذا شكل من أشكال الحياة العربية قبل النفط ترصده لنا الرواية. وفي مقطع آخر يتحدث فراس عن حياة الناس ولا سيما الحكام بعد اكتشاف النفط، ولكنه يشير إلى الماضي القريب، الماضي الذي يُعرِّي الحاضر، ويكشف عن مدى الطفرة التي حولت المضارب الكبيرة والتخلف والعبودية إلى قصور تمارس فيها القيم نفسها:

قلعة من طين ولد فيها حكام أمة بأسرها أبناء أربع زوجات ومائة وثمانين أَمَة... مات السلطان – أفلت أولاده وبناته من هذه القلعة يعيثون في الأرض فساداً... واليوم وعلى بضعه أميال من هذه القلعة يقف مسكن آخر، قصر... وكما يحيط الذباب بالجثة المتفسّخة، تحيط بهذا القصر قصور أقلّ منه شأناً وأقل مالاً ونساءً وعبيداً(6).

تتبنى " قدح من نفط " أسلوب البناء المتداخل؛ إذ تنفتح الرواية بجملة على لسان السارد المشارك، تشي هذه الجملة بمعاناة الشخصية وتيهها، ويجد المتلقي نفسه في قلب الحدث القصصي وأمام شخصية يجهل ماضيها إذ يستغني الروائي عن الاستهلال السردي المطول الذي سنراه جلياً في " مدن الملح "، كما نراه في الرواية الواقعية التي يميل مؤلفوها إلى تقديم الخلفيات المكانية والأبعاد الجسدية والنفسية للشخصيات وعناصر الزمان والمكان وطبيعة الأحداث. إن جميعان يحاول تجنب رتابة الأحداث ويدخل متلقيه في عالمه القصصي مباشرة، ينفتح النص بـ "شيء واحد يفصل بين السكين وعنقي (7) "، ما الذي يحدث وما الذي أوصل الشخصية إلى هذه النقطة الحرجة ؟ إن مضمون الرواية بشكل عام يتحدث عن المجتمع النفطي وتأثيره في الحياة العربية، ويشير إلى وضع الوافدين في هذا المجتمع، وجملة الاستهلال تضع القارئ أمام مجموعة من التساؤلات وتدفعه دفعاً إلى متابعة القراءة. وإذا كانت الرواية تحاول

أن ترصد آثار النفط في سلوك الأفراد وحياة الناس فإنها لا تنسى أن تلمح من خـــلال المقارنة إلى الحياة العربية قبل النفط. فظافر الأحمد بطل الرواية يلاحظ همجية البداوة ويشير إلى أن حياة الناس كانت تعتمد على الرعي وزراعة النخيل؛ شاهَدَ وهو يعبـــر الحدود مع زوجته مجموعة من الرعاة الذين يعبرون بماشيتهم بحثاً عن مراعي جديدة، كان أصغرهم قابضاً على تُميرات " (8).

ويكابد الناس مشقة الحياة وصعوبة تأمين احتياجاتهم اليومية بوسائل بدائية " قال عبدو الذي ما طفق يحدث ظافر الاحمد " بطل الرواية " عن آبـــار القريـــة المهترئـــة الأطراف من طول استعمال الحبال – لقد أضحكه عبدو حتى أغمض عينيه وهو يحدثه عن الحمار الذي وقع في البئر وكيف أن أحد الرجال تطوع لاخراجه " (9)، فلا مياه تجلب بواسطة المواسير ولا محطات لتحلية مياه البحر وإنما آبار مهترئة وحمار تجلب بوساطته المياه.

وتخلو حياة المجتمع من الرفاهية فلا يوجد أجهزة تكييف في أي مكان يذهب إليه السارد والبطل، ووسيلة الإضاءة الوحيدة لديه " السراج " فلما رجع إلى فراشه علـــى ضوء السراج الذابل كانت عيناه تفوران في وجه معروق أصفر(10).

ولعل خماسية منيف " مدن الملح " تعد الأضخم بين هذه الأعمال الروائية لتأنّيها في رصد الحياة العربية قبل النفط، فكان الناس يقتاتون بالإضافة إلى التمـــر الجـــاف واللبن على الخبز القاسي؛ لذا ترى أحيانا على وجوه هؤلاء البدو علائم السخط أحيانا بالإضافة إلى ما يصيبهم من حالات عصبية نتيجة للآلام التي تعتصر في أمعائهم من هذا الطعام اليومي(11).

نستطيع القول إن هؤلاء البدو لم يكونوا يهتموا بما يتجاوز حدود قوت يـــومهم، وإن تجاوزوا ذلك فالأمر ينحصر بتأمين الطعام والشراب والملبس وحتى تأمين هـــذه الأمور لم يكن عن طريق تعامل مالي ونقدي بل على الأغلب تؤمن بطريقة المقايضة ولكن ذلك لا يلغي دور العملة المعدنية في التجارة.

أما مهنة الرعي فتعد مهنة من المهن التي كان لها أهمية بارزة بالنسبة لاقتصاد المجتمع الروائي قبل اكتشاف النفط، إن أكثرية سكان ذلك المجتمع يقتنون الإبل وقد تمثل الرعي في تربية الجمال والماشية وغيرها(12).

من النادر أن نجد في الصحراء شخصاً لا يملك خيلاً أو جملاً كحد أدنى للامتلاك فقد كانت هذه المخلوقات مصدر فخر واعتزاز لكل بدوي وكلما زاد عدد ما يملك من أنعام زادت قيمته بين قومه ومجتمعه وهم لشدة فخرهم بهذه الحيوانات لا يتركونها بدون أسماء بل يطلقون عليها أسماء معينة تعرف تلك الحيوانات فيها عند صاحبها ومن حوله من البشر ولم يكن أي شخص يستطيع القيام بعملية الرعي؛ فلم يكن ذلك العمل سهلاً يسيراً بل إنه عمل لا يستطيع شخص بمفرده القيام به فهو لا يقتصر على السير مع الحيوانات والرعي بها بل هو عملية تتطلب القوة والمهارة في نفس الوقت، وكلما كبر حجم الحيوان ازدادت عملية الرعي صعوبة، فرعي الماعز أسهل من رعي الإبل وبالتأكيد كلما زاد العدد زادت العملية صعوبة، "ومعنى أن يأخذ فتىً في عمره عدداً من الدواب بمفرده أن يكون قوياً وماهراً لأن وقت الغروب في وادي العيون حيث تأتي الدواب لتستقي من أصعب الأوقات و أكثرها مشقة وخطورة "(13)، إنّ عملية السيطرة على هذه الحيوانات أثناء عملية السقاية ليست بالأمر الهين " فهي قضية لا يقوى عليها إلا الرجال أو الفتيان الأقوياء" (14)؛ ومن هنا نجد أن عملية الرعي لم تكن عملية سهلة ولم تكن عملية هامشية بل هي عملية مهمة وهذا الاهتمام بالرعي لم يأت من فراغ؛ فهؤلاء البدو يعتمدون عليه بشكل كبير لما تعود به الأنعام عليهم من فوائد جمة أهمها أنها تعد مصدر رزق لهم فاعتماد البدو على ما تنتجه هذه الحيوانات اعتماد كبير.

وإذا ما انتقلنا إلى الزراعة فإن الأمر يختلف إلى حد كبير؛ فالظروف القاسية أثرت في الحياة الزراعية وامتداد سنين الجفاف وضيق الرقعة الزراعية، وقلة موارد الرزق ومعاناة شظف العيش أثرت على قلة الموارد الزراعية (15). ورغم هذه الظروف القاسية فإن منيفاً استطاع بمهارة لغوية شعرية أن يحسن الصحراء ويضفي

عليها جمالاً أخّاذاً فينتقي بقعاً معينة تستحيل عند أهلها جناناً مليئة بأشجار النخيل حيث يشعر المرء بانتمائه إلى أرضه المعطاء، إن منيفاً وهو يفعل ذلك يجعل مسقط الرأس حيثما كان مكاناً يبدو في نظر ساكنيه فريداً متميزاً ينبغي التمسك به، ولا أبالغ إن قلت إن شعرية الوصف والاستغراق فيه والإكثار من الوقفات الطويلة المفعمة بالتشخيص والأنسنة يجعل القارئ يتخيل هذه الأمكنة ويحبها ويعيش فيها كما لو كان واحداً من أبنائها، ولعل الكاتب قد نجح – إلى حدّ بعيد – في أن يضع المتلقي في أجواء يستطيع من خلالها أن يتخذ موقفاً متعاطفاً أو غير ذلك.

نجد وادي العيون أعجوبة بالمقارنة مع باقي المناطق الصحروايه التي لا تصلح للزراعة: فهو بقعه خضراء وسط صحراء تملؤها أشجار النخيل وتنفجر في كل مكان ينابيع الماء:" يعتبر وادي العيون حالة من الحالات القليلة التي تعبر فيها الطبيعة عن عبقريتها وطموحها" (16). وهذه الصفة لا تتسرب إلى المناطق الأخرى المجاورة؛ فوادي العيون حالة نادرة ولكن رغم أنها بقعه خضراء تملؤها المياه والينابيع، لا نرى ولا نسمع ذلك الذكر عن الزراعة حيث لا نرى صوراً للمزارعين وهم يزرعون أو يعملون في أراضيهم وعند وصفها لا نرى الأشجار تتجاوز النخيل إلى أي صنف آخر حتى أشجار النخيل لم تكن لتبقى لو أنها لم تعتمد على السقاية والري ولكنها كما يقول منيف: " هذه الأشجار تعيش على ما يتسرب إليها من بقايا الماء وربما من بقايا البشر والحيوانات "(17). وهذا لا يعني بالضرورة انتفاء الزراعة نهائياً، ولكنه أمر نسبي يعتمد على غزارة الأمطار وكثرة المياه في الأحواض والينابيع." فإن مياه العيون تنحدر الى أماكن لم يكن متوقعاً أن تصلها. وفي تلك السنين تزرع الخضرة وتظهر النباتات المختلفة" (18).

وثمة مصدر آخر من مصادر الرزق وتشكيل الاقتصاد، فالتجارة تقوم أساسا على منتجات الرعي والزراعة فتمثل الحيوانات والمنتجات الحيوانية الركيزة الأولى والأساسية للاقتصاد في تلك المناطق. لقد كانت الحيوانات ذات تأثير كبير وواضح في تلك المناطق وكان لها سوق خاص وهو سوق الحلال وهو عبارة عن :

" بسطة واسعة من الأرض مستوية، قاسية وفي جانب آبار المياه ، وفي جانب آخر حضائر للماشية والدواب وهي حضائر بسيطة أو بالأحرى لا تتعدى المربعات أو المستطيلات من الأرض المسورة بسلاسل من الحجارة الصغيرة بارتفاع نصف القامة. وغالباً ما تؤجر لقاء مبالغ زهيدة" (19).

في هذا السوق تقوم تجارة الحلال، وهي تجارة ذات أثر كبير في حياة هؤلاء الأفراد، ولكنها مرتبطة بما تجود به السماء، وهذه المسألة، وجعلت من بعض الذين "كانوا فقراء لا يملكون إلا كيسا أو كيسين من التبن أو سطلا من قطران لمداواة الإبل ... أغنياء يمتلكون الماشية والإبل للتجارة وبالعكس، تجار أغنياء يمتلكون الرزق الوفير تحولوا الى فقراء بسبب خسارة في مواشيهم في أحد سنين المحل" (20).

أما التجارة الأخرى فانقسمت إلى قسمين إما:

1- تجارة داخلية بين أفراد المجتمع البدوي الواحد. فكانت تقام لها بضع دكاكين وقد بنيت بشكل بدائي وبسرعة متناهية وهي عبارة عن غرف صغيرة دون نوافذ، وتكون هذه الدكاكين عامرة مليئة بالبشر والأشياء ويختلط فيها الباعة والمشترون (21).

2- أما التجارة الأخرى فهي التجارة الخارجية - تجارة القوافل- هذه القوافل المنتقلة من منطقة إلى أخرى ومن بلد إلى آخر. فوادي العيون مثلاً محطة مهمة لتلك القوافل، فعندما يستقر الناس في الوادي كانت تلك فرصة واضحة لتميز كل قافلة عن غيرها من القوافل " ماذا تحمل هذه القوافل، وكم تحمل، هذا زيادة على معرفة الأسعار وأصحاب الأحمال وغير ذلك من المعلومات؟ " (22).

كانت التجارة أحد أهم المرتكزات التي تقوم عليها معيشة البدو قبل أن يظهر ذلك النفط الأسود ولو أنه استمر بعد ذلك بطرق مختلفة وعلى صعيد أوسع، لكنه في ذلك الوقت كان من أهم أبواب الرزق حيث تنتقل القافلة من مكان إلى مكان تشتري وتبيع في كل منطقة تنزل بها، وتحل عند سكانها وتزداد عملية التجارة إغراء إذا ما اجتمعت أكثر من قافلة في مكان معين، فوادي العيون باعتباره محطة لنزول القوافل

واستراحتها قد تجتمع فيه أكثر من قافلة " خاصة إذا التقى رجال قافلتين، وبدأت تلك المفاوضات القاسية الطويلة والتي يتخللها الكثير من مظاهر عدم الرغبة في الشراء و الاختلاف الكبير فيما يعرضه البائعون وما يطلبه المشترون " (23) ، لكل أسلوبه ولكل طريقته في البيع والشراء لكن النتيجة هي الرزق والمال.

وتشير رواية " قدح من النفط " إلى مصدر آخر من مصادر التجارة؛ إذ كان اعتماد أهل الخليج على الصيد البحري واستخراج اللؤلؤ كبيراً مما يتطلب ركوب البحر والغياب الطويل وخطورة الغوص في الأعماق فهذه الجزر خاليه من الآدميين يستريح إليها صيادو الأسماك والبحارة في غيباتهم الطويلة والتي تمتد اشهراً... (24).

وإذا ما انتقلنا إلى البعد السياسي فسنرى أن البداوة وأحياناً البدائية موجّهة للبنية السياسية، إذ يستند الحكم إلى التركيبة القبلية التي تعني في الغالب تسلط الفرد وتمركز النفوذ في يده أو من يخولهم بذلك من أولاده وأقاربه. وبإيجاز شديد تشير معظم الروايات إلى مركزية الحكم بيد شيخ القبيلة الذي أصبح يسمى أميراً ثم سلطاناً، ولأن القبائل متعددة ومتنافسة فقد كثر الأمراء ونشبت بينهم الحروب الدامية مع ما رافق ذلك من قيم التآمر والغدر والاستعانة بالأقوياء ولا سيما الأجانب... ومن هنا تأتي التبعية المطلقة التي لا تلتفت إلى مصالح الناس ولا إلى ما يمر به العالم من تقدم علمي نهض بأُمَمه إلى قمم الازدهار الاقتصادي والاجتماعي وشيوع القيم العلمية والعقلانية.

يختزل هاني الراهب في " رسمت خطاً في الرمال " التاريخ الذي عاشته الصحراء العربية المكان والزمان والإنسان، فيبدو العربي خاضعاً للآخر فتكون مسالكه وأفعاله ردود أفعال سلبية. يغوص الراهب في أعماق التاريخ متخذاً من أبي الفتح الإسكندري راوياً للأحداث ليكشف لنا عن خيبة العربي الذي حمل تراثه ولكنه تجمد عند لحظة من الزمن، وليس هذا وحسب إنما عاد إلى ماض بعيد يبدو مسكوناً به، ماض يتوافق ــ كما يرى الكاتب ــ مع طبيعة العربي القبلية ونزعته إلى التفكك فترك الرسالة وراح يهيم في غير إله. نقرأ في فصل يحمل عنوان "أبو الفتح الاسكندري يبحث عن عمر بن الخطاب":

أفق أبلق. أرض تركض، وعين تستجير من التمر لسومر. لآشور دفع غرامة السلامة. وانكفأ ليعبد بعلاً سماه هبلاً. أشواقه تتنزى عشقاً للات والعزى. خلاياه مصنوعة من الرمال ووبر الجمال. كذلك بيته وبخته وتخته. تعلم من البعير الصبر،ومن الصحراء الغدر، أقام بختنصّر إمبراطورية الجغرافيا فأقام هو إمبراطورية اللغة، صوحت أشجار جزيرته وظل هو غضاً؛ غارت في باطن النجاد وغار هو في حرف الضاد، صار التراب رمالاً وصار هو حروفاً. بعد آلاف السنين صارت الأشجار بحار النفط، وصارت الحروف لغة القرآن، وعندما اكتملت لديه عشرة ملايين كلمة حضر إلى التاريخ حاملاً كتابه بيمينه ذلك هو العربي (25).

وفي الوقت الذي بدأت فيه أوروبا تجتاح المجهول بالعقل في القرون الحديثة ولا سيما القرن الثامن عشر، كما يصرح النص، كان العربي يعيش في متاهات التخلف ينتظر عودة الحرية التي بشر بها عمر بن الخطاب. وفي حين كان الإنجليز يستخدمون المنظار والسفن والعدسات "كان الأعرابي يريد أن يصبح خليفة وكان الإنجليز يحبون الخلفاء"(26). والرواية مليئة بالشواهد التي قدمت بطريقة تقريرية والتي تشير إلى أن العربي خاضع للآخر مستلب الإرادة لا يملك من أمره شيئاً، وعلى الرغم من أنه صاحب الأرض، فإن الآخر هو الذي يرسم الحدود ويقيم المشيخات، مفتتا الأرض العربية:

كان الخلفاء قد اختلفوا على الحدود لكن الميجر "فكس" وبخهم في يوم مشهود. امتشق قلماً وفتق ورقة، رسم خطاً من البحر إلى الصحراء فإلى الصحراء فإلى البحر. قال لتكن هذه نفيطية سين فكانت. وقال لتكن هذه نفيطية جيم فكانت. قال: لتكن النفيطيات فكانت. ذلك هو الميجر "فكس" صانع الدول (27).

وفيما يشبه الاسترجاع يقدم السارد خلفية تاريخية لمفتش الجمارك الذي يعد من ممثلي السلطة، وتنصرف هذه الخلفية بالضرورة إلى المجتمع العربي قبل اكتشاف النفط، وتؤكد هذه الخلفية مظاهر البدائية والتخلف والقمع وانتهاك حقوق الإنسان " مفتش الجمارك حارس المكس أمضى قروناً وهو يفترش الرمال يمشي على الرمال

في ذلك الزمان لم يكن هناك قانون يحكم قيام الدول فكل من يرى في نفسه القدرة أن يبني دولة يعمل على ذلك مباشرة، دون سابق إنذار ودون حساب لأي جهة أخرى من الممكن أن تؤثر سلباً على قيام تلك الدولة. في ظل هذا الوضع ليس أسهل من أن تغيب دولة عن الوجود وتختفي دون أن يحس باختفائها أحد. وما هذا إلا لكثرة تلك الدول وتبعثرها هنا وهناك وهي مع كثرتها سريعة الزوال كسرعة بنائها.

إن هذا الوضع المتهلهل لتلك الدول ليس إلا نتيجة لتحكم فئة معينة بالسلطة – فئة الأقوياء– الذين يتخذون القرارات فهم وحدهم الذين يقررون بناء تلك الدولة أو نسف تلك الدول تبعاً لمصالحهم وقدرتهم على المساومة.

لم يكن أسهل من أن يخترع أمير لتلك المنطقة أو يحكم على ذلك الأمير بالنفي أو الموت، فقط لأن شخصاً أقوى منه ظهر على الساحة فحق له إلقاء الأوامر ونقض العهود والوعود إذا رأى في ذلك مصلحته.

ونستطيع أن نزيد الأمور توضيحاً إذا ما أخذنا مثالاً على الوضع السياسي في منطقة ما. ومثالنا هنا هو " موران " تلك الصحراء الغارقة في الرمال والنسيان" كما يقول منيف. موران هي أكبر مثال على الوضع السياسي المتهلهل في تلك البلاد فيكفي أن نقول إن عدد أمرائها مائة أمير. إنه عدد ضخم بالنسبة لصحراء وهذا إن دل على شيء، فإنما يدل على عظم حجم التنازع بين هؤلاء الأمراء حتى أصبحوا بهذا العدد فكان أمراؤها المائة يتنازعون أجزاءها كما تتنازع النسور(32). النسور هي الأشد شراسة بين الجوارح وتنازع الأمراء هو الأشد ضرواة في الصحراء القاسية فنزاعهم يزيد إلى قساوة الصحراء قساوة أخرى.

لم يكن هؤلاء الأمراء متساوين في حجم دولهم فدولهم تختلف بالتأكيد في الحجم وهذا الاختلاف يعود إلى عدة أسباب قد يؤدي بعضها إلى أن تصغر الدول، إلى أن تضمحل وتتلاشى فلا يبقى لها من أثر. وهنا يجعل منيف الدول خاضعة لقوة الطبيعة، وغياب الفعل البشري! فالجراد مثلا والهواء الأصفر وقلة الأمطار أسباب كافية لتقضي على أكبر دولة (33).

وقد تؤدي أسباب أخرى إلى استمرار هذه الدولة وإبقائها لفترة أطول وكانت هذه الدول تستقر لبعض الوقت. تهدأ وترتاح لكن هذا الهدوء لا يستمر طويلاً فسرعان ما يعود الجنون إلى عقولهم، ويحول تلك البلاد إلى جحيم وبنفس سرعة الجنون ينتهي كأن لم يحدث شيء. إن قانون السلطة في تلك المناطق لم يكن ليسمح لأميرين أن يجتمعا في مكان واحد، فالمكان لا يتسع إلا لواحد هو الأقوى الذي استطاع أن يفرض نفسه.

وكما قلنا ليس هناك قانون واضح، فإذا ما استحلى أحد الأمراء منطقة معينة لما فيها من خيرات وربما لموقع تلك المنطقة، ليس عليه إلا المجازفة والدخول في حرب إما أن يخسر ويعود من حيث أتى، وإما أن ينتصر ويظفر بكل ما يترتب على هذا الانتصار من مغانم. وبما أن المكان لا يتسع لاثنين كما هي القاعدة فإن الأمير المهزوم إما أن يجلو مهزوما لآخر غيره وإما أن يريحه الأمير الفائز من هذا الإحساس وينهي حياته في التو واللحظة التي ينتصر فيها (34).

الدول في تلك الفترة مرتبطة بأمرائها فما دام الأمراء أحياء وأقوياء فإن الدول موجودة ومستمرة وقد تمتد وتتسع تبعاً لقوة الأمراء و تحالفاتهم، أما إذا هزم الأمراء أو قتلوا فالدول تندثر ولو إلى حين؛ إذ يحاول أبناء الأمراء المهزومين مرة أخرى استعادة ملك الأباء والأجداد لتبدأ دورة لا تنتهي من الكر والفر وأخيراً الثأر (35). وهذا ما حصل مع فرحان بن سحيم الذي هزم وهرب بعد الهزيمة. أمراء يتقاتلون ينتصرون ويهزمون، وبعد ذلك ينتهون، ولكن انتهاءهم لا ينهي القضية، ولا يضع حداً لهذا السيل الجارف من الدماء، ربما ينتهي دورهم لكن الدور الأكبر يبقى للأبناء حتى تستمر عجلة الموت.

خريبط بن فرحان لم يستطع السكوت على الثأر فقتل مزهر وجلس مكانه كما هي العادة: من يقتل أميراً يستلم الإمارة. إن ما نستطيع استنتاجه من كل ذلك أنه لم توجد دولة محدده تتحكم بكل ذلك وكما يقول ابن خلدون " أن الأوطان الكثيرة القبائل والعصائب قلّ أن تتحكم فيها دولة " (36).

كانت هذه القبائل والدول تتفاوت في حجم النزاع فالنزاع أيضاً يرتبط بحجم الدولة أو القبيلة، فالدول الصغيرة تتنازع مع بعضها بعضاً بعيداً عن الدول الكبيرة، لكن تلك الأخيرة تتدخل إذا لزم الأمر ويصل الصراع حدوداً كبيرة يجب التدخل معها، فالدول الكبيرة التي كانت في أوقات سابقة تتسامح وتتظاهر أنها لا تعرف ولا ترى حين يتنازع الصغار على المياه والمراعي، وكانت تتركهم يقتل بعضهم بعضاً وتحتمل أيضاً ضجيجهم وأحياناً طيشهم، لم تعد قادرة على الاحتمال والتسامح في هذه الفترة (37).

من المقصود بهذه الدول الكبيرة ؟ هل هي من ضمن الصحراء ومن ضمن المجتمع العربي الروائي ؟ أم هي قوى أخرى تتدخل في الشؤون العربية في تلك المجتمعات ؟

رغم كل الوصف السابق لتشتت تلك المجتمعات وتفتتها وكثرة الصراع بينها إلا أنها تحسب حساب قوة عظمى وكبرى هي بريطانيا. بريطانيا هي ما تسمى " الدولة الكبرى " في تلك الفترة. كانت كثيراً إذا لم يصل الأذى إلى حدودها تترك هذه الدول تتنازع وتتحارب دون التدخل، كان يروق لها أن تصفي تلك المجتمعات بعضها بعضا حتى يخف العبء عنها. كلما زاد عدد هذه المجتمعات زاد الضغط على تلك الدول. ليس لسرعة تدخلها في المشاكل ومبادرتها لحل تلك القضايا بل لكثرة استجارة الدول الصغيرة بتلك الدولة العظمى، فأي أمير يواجه مشكلة مع أمير آخر يسارع إلى بريطانيا لتقف بجانبه ليستطيع تصفية هذا الأول. لكن بريطانيا إذا لزم الأمر تتدخل خصوصاً إذا وجدت أن الموضوع يمسها بشكل رئيسي، فإذا ما وقف أحد الأمراء مع أعداء بريطانيا عندئذ يطيب لها التدخل والتخلص من هذا المتطاول المتعدي. وهذا تماماً ما حصل مع مزهر بن سحيم الذي أخطأ خطأ عمره وذهب ليتعاون مع أعداء بريطانيا وحتى تخلت عنه بريطانيا وباركت قتله على يد خريبط ابن فرخان بن هديب ووجدت في خريبط الرجل المناسب ليبقى عيناً لها في الشرق في هذه الصحراء.

لم تكن بريطانيا لتترك تلك الصحراء وحدها وإن تركتها تتصارع لفترة فإنه يطيب لها أن تبعث بين فترة وأخرى أحد أعوانها ليطمئنها على الأجواء وأيضاً ليثبت لمن هناك أن بريطانيا موجودة تعرف بكل ما يجري ولا يخفى عليها خافية، حتى لا يطمع من في قلبه مرض بالخروج عن طاعتها فلن تسكت ولن تتركه يتمرد عليها (38).

إذن الغرب موجود في الشرق منذ القدم، لم يكن النفط هو السبب الوحيد لوجود الغرب لكنه وجود سطحي لا يدخل إلى الأعماق لعدم وجود أي إغراء له بالوجود. وإنما يأتي فقط لإثبات القوة. فيما بعد تعمق هذا الوجود وتأصل لوجود الاغراءات. مثل هذه الدول لا تهمها إلا مصلحتها فأينما وجد مجال للكسب تتواجد فيه و تفرض نفسها فرضاً.

ويمكن القول باختصار إن النظام القبلي المسيطر يقوم على جمع السلطات كلها في شخص السلطان فهو المشرع والقاضي والمنفذ وهو الحاكم المطلق. ربما يستعين السلطان أحيانا في إدارة الدولة بأولاده أو كبار العائلة وزعماء القبائل وشيوخ الدين وبعض التجار والوجهاء (39)، شريطة أن يكون رأيهم من رأيه وإذا ما خالفوه فمصيرهم معروف، التهجير في أسهل الحالات ثم القتل، وإذا لم يجد السلطان مستشاراً لجأ إلى الدولة العظمى -كما أشرنا- لتبعث له " هاملتون " مستشاراً يعمل على تفكيك البلاد، ويسهم في التنكيل بالعباد، يظهر الود للسلطان والعرب، وقلبه مملوء بالحقد ويطمع فضلاً عن حرصه على نشر الأفكار الغربية في بلاد العرب (40). وإذا كان فكس الأمريكي في " رسمت خطاً في الرمال " يقسم الدول بقلم الرصاص فإن هاملتون يخطط لقتل المعارضين وتصفية المنافسين ويبدو في هذه الرواية خبث السياسة الإنجليزية التي تسعى لتحقيق مصالحها العليا وتأخذ بعين الاعتبار متطلبات شعبها فقط، ولا تقدم لأحد مساعدة إلا إذا كان من وراء ذلك مصلحة خفية وقد تجلى ذلك من خلال حديث هاملتون مع السلطان حيث شرح له مفهوم السياسة التي تبدو في نظره "و ليست الترغيبات وليست الأفكار التي يتعلمها الطلاب... السياسة شيء أخر تماماً، إنها صراع

القوي والمصالح والإرادات والممكنات وهذا الصراع من التعقيد والتشابك إلى درجة يبدو بعض الأحيان مستحيلاً أو دون حل خاصة بالنسبة لأفراد وقوى وحتى لشعوب معزولين وبعيدين "(41). ومع ذلك كله فإن "مدن الملح" تقدم ضروباً من المقاومة لا يمكن إنكارها بدت ملامحها في "التيه" كما سنرى، وتبدو ملامحها في" تقاسيم الليل والنهار" حيث ترصد الرواية معارضة عمير شقيق زوجة السلطان وخال ولده ولي عهده " فنر" حيث يصفه السلطان بقوله: " ترى عمير وأمثاله يخربون ديرة وينجسون عشيرة "وينبه الرواي إلى أن المعارضة تتكئ على الدين (42)، ومن المعارضين ابن ميّاح الذي يغير على القوافل(43).

وإذا ما عدنا إلى الكشف عن العلاقة مع الأجنبي والتبعية له فإن المستشار الإنجليزي لا يخجل من توجيه التهديد إلى صديق بريطانيا السلطان خريبط عندما يقوم بأعمال لا تتفق مع السياسية الإنجليزية وتجلى ذلك بما قاله هاملتون للسلطان " جئت إلى هنا يا صاحب الجلالة لكي أقدم احتجاجاً باسم حكومتي على هذه الاعتداءات ولكي أبلغكم أيضاً أن حكومة صاحب الجلالة تحتفظ لنفسها باتخاذ الإجراءات التي تراها مناسبة بما في ذلك الرد العسكري" (44)،

إن هاملتون كما ظهر دوره في الرواية ما هو إلا حاكم عسكري إنجليزي يدير الأمور من خلال السلطان ويوجه سياسة السلطنة في الاتجاه الذي يخدم "مصالح بريطانيا مستخدماً الترغيب بالهدايا والسلاح والمال والترهيب بالرد المناسب والتدخل العسكري إذا لزم الأمر. هاملتون يلقي على السلطان درساً في كيفية الاحتفاظ بالأراضي المحتلة ويقول: " في سبيل الحفاظ على الممتلكات الجديدة فإن خير الوسائل وأكثرها طمأنينة هو أن يقرر الحاكم الجديد إقامة مقرّه في المملتكات الجديدة وهذا القرار يجعل الامتلاك أكثر سلامة وأطول أمداً" (45).

أما وسائل السلطان في احتواء الخصوم فهي تلك الوسائل التي عرفها العرب قديماً، والمتمثلة في مهاجمة الخصم الذي يمكن قهره عسكرياً كما حصل مع السلطان

خريبط الذي هاجم ابن ماضي سلطان العوالي، أو الاحتواء عن طريق المصاهرة كما حصل مع السلطان خريبط الذي خطب ابنة العجرمي (46).

هذه الصور التي رسمها الروائي في هذه الرواية تمثل واقع حكام السلطات التي لا تستطيع الواحدة منها القيام بأي عمل دون الرجوع إلى المندوب السامي البريطاني الذي يظهر أحيانا كالقط الأليف وأحيانا كالنمر ولا يخفى أن القرارات تتخذ في لندن.

لقد انعكست البنى السياسية والعيش في أحضان الماضي المتخلف القائم على الاضطهاد والقمع ـ على تشكيل القيم وأنماط السلوك وأظهرت الإنسان العربي كأنه يعيش في قرون التخلف والظلام. ولعل من أبرز القيم الشائعة في فترة ما قبل النفط الإيمان بالغيبيات إلى حد عطّل العقل وحيده وأصبح الدين سلبياً بدلا من أن يكون مصدر إلهام وإبداع، ففي " رسمت خطاً على الرمال " يقتصر فهم القران الكريم على الإيمان بالجن والتداوي بحروف القرآن واستبعاد التداوي بالعلاجات المعروفة:

أخبرني فضيلته أنه قد كتب لي عمر جديد.. قال أني نجوت بقدرة قادر من المس واللبس والصرع والخَرَع والصدع وجميع حالات الجنون التي تصيب الجن بها أمة محمد. قال إني لو حملقت في الجنية لأصابني النظر بسهم من سهام الجنس الإبليسية...

سألني في أي يوم حدث الحادث فقلت انه الأربعاء قال لكل يوم حرفة وأن شيطان يوم الأربعاء هو الملك برقان أحد ملوك الجن السفلي. قال أني مررت على ماء غير طهور أو على نجاسة تتبخر أو على عظم فتت في الظلام. قلت إني كنت مضطجعاً على غاز الهيليوم... و يصف له الشيخ وصفة تكتب بها سورة التكوير وسور أخرى في إناء صيني ثم تمحى الكتابة بماء الورد والمسك وتسقى منها أربعة أيام "(47).

وفي مقطع آخر من النص يطل علينا هذا المعنى على لسان الساردة " شهرزاد" حيث تتحدث عن نوم "شهريار" العميق بعد الألف ليلة وكيف أنه طوف في

البلدان ليبحث عن العرافين والمنجمين وطرد الجن لم يبق مزار إلا وقُصِدَ لحل مشكلة النوم عند شهريار ولكن لا فائدة من ذلك (48).

وبغض النظر عن هذه الدلالة فإن النص يشي بأن الإيمان بالغيبيات لا يكفي "حملتُ شهريار إلى الحرمين الشريفين، قلت : إذا لم توقظه الكعبة والنبي فلن توقظه كرامة ولا شفاعة" (49).

إن هذه المسألة تشير إلى ثبات القيم وأساليب التفكير منذ سبعمائة عام كما يحدد النص في حديثه عن غيبوبة شهريار بحيث يكون تحقيق أي مشروع نهضوي أمراً غير ممكن. وتقفز الساردة من الماضي البعيد إلى ماض قريب وتشير إلى " لورنس العرب " الذي كان عالم آثار ومحارباً وجاسوساً (50)، ثم تنتقل إلى الحداثة لتكتشف بأن شهريار الذي استيقظ لتوه ما زال يهذي بالتمائم والفضاءات الدينية ويحلم بعد يقظته كيف يصبح ملك المكان بعد أن كان ملك الزمان.

وتكشف رواية " رسمت خطاً " عن مدى حب الإنسان العربي للماضي وتوقه إلى الرجوع إلى التاريخ والاتكاء على الموروث سلباً وإيجاباً، فكما هو الحال في "مدن الملح" يتنافس الأمراء والشيوخ ليصبحوا سلاطين وخلفاء متكئين في ذلك على النص الديني، وللحصول على السلطة يصبح كل شيء مباحاً: القتل وسفك الدماء بالمفرد والجملة. وعلى الرغم من أن السارد يتحدث عن طموح الأعرابي الذي يريد أن يستعيد عهد الشيخين أبي بكر وعمر فإن محمد بن عبدالوهاب وحركته لا يمكن أن تغيب عن ذهن القارئ، بقطع النظر عن رؤية الكاتب. ومهما يكن، فان " الأعرابي استمرأ القتل للوصول إلى السلطة:

" بعد صلاة العشاء مرت ساعة تقاس بالدهر. ثلاث مرات صلى العشاء، وبعدها تقدم ولديه(!) وعبيده وغلمانه بأيديهم بواريد وفي جلابيبهم رصاص. تقدموا نحو قصر أخويه في ظاهر البلد أثبت فوهة بارودته في صدغي أخويه. وسمح للنار بالانفجار في الدماغين النائمين" (51).

إن قيمة سفك الدماء والقتل المجاني تُبرّر كما أسلفت – بالاستناد إلى القران الكريم. ففي كل حادثة قتل يجعل الحاكم القرآن مرجعيته " وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك، قال إني أعلم ما لا تعلمون " (52)، هكذا يمتلك السلطان المعرفة الكلية والعلم بالغيب فيفعل ما يشاء، وكان منظر القتل يبعث في نفسه النشوة والبهجة: " بيده كتاب الله وبيده بارودة بدأ بآل غنمان فأردى أكباد شيوخهم.. وتابع بآل نويران وآل رشيدان وبكل آل" (53)، ويستحلي هذا الأعرابي الرجوع إلى القرون الخالية، لأن البارودة لا تريه منظر الدم أما السيف فهو المجد والبطولة (54).

أما المرأة فكانت تعيش حالة من الكبت والقمع وانعدام إنسانيتها، ففي فترة من التاريخ في القرن الثامن عشر قبل اكتشاف النفط يحيلنا الكاتب بأسلوب عجائبي إلى عهد الجواري ليدلل على أن الوضع ما يزال على ما هو عليه؛ إذ يكون للخليفة أو السلطان محظيات تعيا على الحصر. ولعل مثل هذه الكثرة المُصاحبَة بالسجن في الدور والقصور؛ إذ لا تخرج الجارية إلا نادراً ــ تفضي إلى الانحراف، والبحث عما يلبي الرغبة. تروي لنا شهرزاد في " رسمت خطاً في الرمال " قصة عشر من النسوة جَلَبْنَ شهريار إلى الحمام ليمر وقت نفسي لا يقاس بالساعات امتزجت فيه المعاناة باللذة، إذ وجد شهريار نفسه يتعرض "للمياه الحارة والسياط والأظافر الخامشة والأصابع القارصة والصهيل المنغرز في جسدي والصابون والليفة والمشط" وفي الوقت نفسه وجد نفسه يلبي رغبات نساء يتقن إلى العشرة والممارسة الجنسية، ويكشف النص بطريقة مباشرة الحد الذي وصل إليه المجتمع من حالات التردي الاخلاقي الذي يعود إلى استمرار القرون الوسطى وعهود الجواري والحريم فضلاً عن هيمنة الحاكم وامتلاكه للأشياء والإنسان " (55).

وقد يبلغ الأمر أحيانا كثيرة إلى حدّ تفضيل المرأة على الأرض والناس والأوطان، فزيادة إلى الإشارة إلى "الجمالين" والبداوة والحياة البدائية في الثقافة والأحوال المعيشية، يبدو المجتمع متردياً إلى درجة التخاذل والذل، فالتفكير لا يتجاوز

الفرج والبطن ولا سيما عند الحكام: " قال المترجم: السيد الرئيس يريد من جلالتكم وعدا ألا تعطوا للإنجليز ولا لغيرهم امتيازاً نفطياً فقط للأمريكيين" (56)، وهنا يبدو هاني الراهب أكثر صراحة ومباشرة في تعبيره عن ميل السلطان إلى إشباع الرغبات الجنسية فمتعة الفرج عند الحاكم تفوق كل شيء حتى لو كانت مقدرات الأمة، فحين تسابقت الشركات للحصول على الامتيازات للتنقيب عن النفط فضّل الحاكم ما يشكل له هاجسا:" ليس أيسر على الحاكم من تلبية طلب صاحب الفخامة، النفط ! ليأخذ النفط كله ما دام لم يطلب واحدة من نسائه" (57). ويضاف إلى ذلك تفشي الأمية وانتشار الجهل والفقر والإيمان بالخرافات، بيد أن قيماً إيجابية شاعت في هذه المجتمعات مثل الكرم والتكافل الاجتماعي والتواصل الإنساني وحب الأرض والانتماء... إلى غير ذلك، كل ذلك كان قبيل اكتشاف النفط، فما الذي حدث عند مجيء الآخرين ؟ ما ردة فعل أبناء المنطقة للمجيء الغربي ثم لوجوده ؟ هذا ما سيعالجه الفصل التالي " الفعل وردة الفعل ".

الفصل الثاني

الفعل وردة الفعل

إنه لمن البديهي القول إن التواصل سمة إنسانية، سواء أكان ذلك على مستوى الفرد أم على مستوى الجماعة. وقد اتخذت هذه النزعة البشرية أشكالا متعددة تمثلت بالرحلات الفردية أو الهجرات الجماعية أو الحروب أو العلاقات الاقتصادية والثقافية... الخ. وقد وثّقت الأدبيات التاريخية هذه العلاقات المعقدة بين الجماعات البشرية، كما أسهمت الأعمال الإبداعية في التعبير عن أشكال العلاقات هذه.

وقد حظيت هذه المسألة باهتمام الأدباء والمفكرين بشكل متزايد منذ بدايات القرن التاسع عشر إلى أيامنا هذه و لا يجد المرء صعوبة في التدليل على هذا الاهتمام، إذ تكفي الدارس مطالعات متسرعة لكتابات الطهطاوي و الشدياق والمويلحي وغيرهم ممن عنوا بالتواصل الثقافي. ولعلّه من المفيد الإشارة هنا إلى أن هذه الأدبيات في القرن التاسع عشر، ثم ما تبع ذلك من إنتاج روائي في القرن العشرين رصد مواقف المفكرين ومن ثم مواقف الناس تجاه التواصل البشري، و لا سيما التواصل مع الغرب في المجالات التكنولوجية والاقتصادية والاستعمارية. وقد انتهت الدراسات التي عالجت هذه المسألة إلى أن مواقف المفكرين العرب تجاه الغرب انحصرت في ثلاثة اتجاهات: استحسان وقبول كل ما هو غربي، ورفض الغرب لما فيه من توجهات تسلطية استغلالية ونزعات مادية لا تنسجم مع ما استقر في الوعي العربي من قيم واعتقادات. أما الاتجاه الثالث فنحا منحى التوفيقية: امتحان مفردات الحضارة الغربية والإفادة منها بما يتفق والثقافة العربية الإسلامية، و لا يعني رصد هذه الاتجاهات ترتيبا تاريخيا زمنيا و إنما يعكس أراء مختلفة في فترات متباعدة أو متقاربة. ففي حين يستحسن أحمد فارس الشدياق بعض القيم الغربية ويتبناها، نجد الطهطاوي وهو معاصر له يطوع القيم الغربية المادية والمعنوية لكي تستجيب لروح الثقافة العربية الإسلامية. أما المويلحي فقد جعل الإسلام في كتابه: "حديث عيسى بن هشام" مقياسا لقبول المفردات الغربية أو

رفضها، كما أنه دعا إلى يقظة الأمة الإسلامية وتطورها، ورأى أنه ما من حضارة وافدة قادرة على الحلول في بلد آخر إلا إذا كانت حضارة هذا البلد غائبة أو ضعيفة.

وفي القرن العشرين كثرت الروايات التي تناولت هذه الثيمة، وقد نهجت المنهج نفسه من حيث ردود الأفعال، فبعض الروايات قبلت بالغرب قبولا تاما كما هو الحال في "أديب " لطه حسين، وبعضها رفض الغرب بماديته وعلمانيته، ومثل ذلك الحكيم في "عصفور من الشرق" وعبد الحميد جودت السحار في " جسر الشيطان"، وذهبت بعض الروايات إلى التوفيق على النحو الذي طرحه يحيىٍ حقي في "قنديل أم هاشم "، وسهيل إدريس في " الحي اللاتيني". وهذه الدراسة ليست معنية بدراسة هذا الموضوع دراسة مستفيضة وإنما لجأت وستلجأ إلى الإشارة إليه بغية وضع المسألة قيد المناقشة في سياقها التاريخي والأدبي.

إن التوظيف السابق ينطبق على روايات كاملة كما ينطبق على مواقف شخصيات روائية في عمل واحد على النحو الذي نجدة في الروايات التي جعلت النفط جزءاً من اهتمامها أو مركز اهتمامها؛ فقد ارتبط النفط بوجود الأجنبي وأفرز منذ بدايات التنقيب عنه مواقف متباينة تجاه الأخر، وهي مواقف تتناغم إلى حد كبير مع المواقف الفكرية التي رصدها الباحثون في روايات اللّقاء الحضاري(58).

ويهدف هذا الفصل إلى التحديق في ردود الأفعال الأولى_ تجاه مجيء الأجنبي- التي يفترض أن تعبر عنها الروايات العربية التي حاولت أن تكشف عن أثر تفجر الثروة النفطية في الحياة العربية وعمّا طرأ على هذه الحياة من تطورات وتغيرات حادة لامست البنى الثقافية، وإذ تعول هذه الدراسة على التعبير الفني الروائي في رصد الأفعال وردود الأفعال، فإنها لا تُحَيِّد الوثيقة التاريخية طالما كان ذلك ضروريا لإغنائها وطالما كانت الحياة في المجتمع الروائي صدى لحياة المجتمعات العربية وتعبيرا فنيّا عنها.

إن الروايات العربية قيد الدراسة لم تحقق بالدرجة نفسها في ردود الأفعال الأولى، أي عند مجيء الأجنبي، وإنّما صبَ بعضها الاهتمام على ردود الأفعال بعد أن

بدأ المجتمع النفطي باستهلاك منتجات الآخر، فعبرت هذه الروايات عن موقف النـــاس من المذياع والكهرباء واستيراد الملابس والمنتجات الغذائية وما رافق ذلك من قيم.

ولعلَّ "مدن الملح" ولا سيما الجزء الأول منها " التيه " هي العمل الأبرز الــذي وقف عند بدايات قدوم الآخر، وتأمّل مواقف الناس، ومن هنا فإن هذا الفصل ســيعول على تحليل ثلاثة مواقف متباينة بوضوح في " التيه " رابطا هذه المواقف بشخـصيات تمثلها: موقف رافض مقاوم للوجود الأجنبي، وموقف يقبل الآخــر ويــسوّغ هيمنتــه بالمكتسبات التي سيجنيها الناس بعد استثمار النفط، وموقف ثالث يميــل إلــى الحيــاد ويفضل الإرجاء والترقب فيبدو كأنه مفتقر إلى الوعي بما يجري وما سيجري. ولعــلّ مسألة "الاستغراق الزمني" أو ما يسمى "الديمومة" التي تقارن زمن المتن بمساحة المبنى تكشف لنا عن موقف جليّ للراوي الكلي العلم ومن خلفه المؤلف، إذ تثبت الراوية كما سنرى أن الاتجاه الرافض يحظى بوقفات متباينة يمتزج فيها السرد بالوصف لا ســيما وصف الأرض التي تشكل إحدى علل السرد الكبرى، لأنها تدفع بالسرد وتعمل علـــى استمراره. وفضلا عن ذلك يلجأ الراوي إلى المشاهد المطولة التي يبرز المقاومُ قــويّ الحجّة مقنعاً للمتلقّي، في حين يميل السارد إلى استخدام تقنيــة التلخــيص والمــشاهد القصيرة حين يبرز لنا مواقف القبول، وسنرى إن الاختصار الــشديد والحــذف(59) تقنيتان تبرز من خلالهما الشخصيات الحيادية والهامشية. إنّ هذه الإشارة لا تعنـــي أن منهج الدراسة يميل إلى تحليل التشكيل الفني أو أساليب السرد بمقدار ما تعني أن ثمة تضافراً بين الشكل والمضمون.

وقبل الولوج في تحليل ردود الأفعال الأولى في مدن الملح/ التيه، أرى أنه من الضروري الإشارة إلى رواية تسجّل مواقف الناس تجاه الآخر الأجنبي بعد اكتــشاف النفط وأثناءه من وجهة نظر فكرية تقترب- إلى حدٍّ ما- من تلك التــي أمعــن فـــي تصويرها منيف، مع اختلاف بيّن في الأسلوب السردي والتقنيات المــستخدمة: وفـــي حدود ما أعلم فإنّها أول رواية عربية ناقشت موضوع النفط، والتدخل الغربي في العالم العربي في القرن الفائت- وهي رواية شمروخ لمحمود تيمور.

تدور أحداث هذه الرواية على أرض زيتستان، وهي جزيرة عربيــة متخيلــة. ويروي أحداثها منصور المصري، وهو من مصر، من خــلال علاقتــه مــع عــدة شخصيات وعلى رأسها شخصية الأمير همّام؛ أكثر الشخـصيات تحريكــا للأحــداث وتطويرا للحبكة، وهمّام هو ابن "مديح الأرض"، حاكم الجزيــرة. درس همــام فــي القاهرة، ثم سافر إلى إنجلترا حيث درس الاقتصاد والعلــوم الاجتماعيــة والتــاريخ، وعندما عاد إلى مصر التقى منصور المصريّ، الذي عاد معه فيما بعد إلى الجزيرة. بعد عدة زيارات إلى الخارج أقام همام والمصري في الجزيرة، منتقلين بشكل مستمر بين "الطاهرية": العاصمة القديمة- "والمديحية" العاصمة الجديدة ومركــز النــشاطات السياسية والاقتصادية. وجد همّام نفسه أمام ثلاثة أحزاب سياسية: 1- القرية الطاهرة بقيادة نعسان المبارك، أمير مدينة الطاهرية. 2- الرشاد الحرّ بقيادة مديح الأرض. 3- حزب العمال بقيادة شهاب، قائد العمال.

وفيما يتعلق بهمام أسس حزب الشعب، وهو حزب يقف على النقيض من حزب القرية الطاهرة الذي يدعو، كما سنرى، إلى تدمير آبار النفط، والمحافظة على الإسلام، ويقف أيضا على طرف مناقض من أفكار حزب الرشــاد الــذي يؤيــد " التغريــب" واستغلال النفط. وتقول الرواية إن كلا من الحزبين حاول أن يستميل همّاما من خلال المرأة! ومن هنا يعيش همام في صراع بين إشراق المدعومــة مــن حــزب القريــة الطاهرة، والآنسة الإنجليزية فلورين المدعومة من حزب الرشــاد الحــرّ والــشركة النفطية. لقد حاول همّام الاحتفاظ بالنفط والتقاليد الوطنية. يزور همام الطاهرية ويلتقي نعسان وابنة أخته إشراق، وقد حاول أن يفهم مطالب الناس ويكسب تأييدهم لأفكــاره الوطنية الداعية إلى تطوير الجزيرة. يقوم همام أيــضا بزيــارة العاصــمة الجديــدة (المديحية) بصحبة الراوي منصور المصري للقاء الحاكم الذي عاد لتوّه من زيارة إلى الخارج واستُقبِل عند وصوله بمظاهرات عُمّالية تطالب بطرد الأجانــب مــن جهــة، وامتلاك جزء كبير من ممتلكات الشركة، وقد فُوجِئ الحاكم بأن هذه المظاهرات تمّت بمباركة ابنه. وفي وقت لاحق نقرأ أن مساندي الحاكم خططوا للإيقاع بالوطنية مــن

خلال تشويه السمعة؛ قتلوا امرأة إنجليزية واتهموا العرب بذلك؛ ممّا حدا بمديح الأرض إلى إلقاء القبض على همّام ونفيه. قامت الحركات القومية(سكان الطاهرية، حزب الشعب، وبعض الجنود) بمقاومة الحكومة والأجانب؛ ممّا أدى إلى خروج الحاكم ومؤيديه، يُختار نعسان المبارك حاكما جديدا، ويُعيّن همام رئيسا للوزراء؛ إذْ يشكل حكومة ائتلاف تضم الأحزاب الثلاثة. وتنتهي الرواية بخطوبة إشراق.

إذن تحكي هذه الرواية قصة الاستثمارات النفطية في جزيرة متخيّلة أسماها الكاتب زَيْتستان، ويحلل من خلالها أثر النفط، واستغلال الشركات الأجنبية للنفط والإنسان، والصراع بين الطبقات المستغلة وجمهور الناس. ويبدو من خلال هذا العمل أنه بالإضافة إلى دور الشركة الوحيدة في جزيرة زيتستان– في التنقيب عن النفط واستثماره؛ فإنها قامت بثلاثة أدوار جليّة، أولا: أنها روّجت الأفكار الغربية، وأشاعت بعض العادات والتقاليد الغربية، سواء ما تعلق منها بالشراب أو اللباس أو غير ذلك. ثانياً: أصبحت الشركة بوقا دعائيا لبريطانيا، وهي الدولة التي تنتمي إليها؛ إذْ مدحت السياسة البريطانية، ورفعت شعارات تشيد بها، مثل:" بريطانيا صديقة العرب"، و" بريطانيا هي الدولة التي تحمل لواء الحرية والحضارة والعدالة" (60)، والشركة بذلك تسعى إلى تمكين الهيمنة البريطانية على الأرض العربية. ثالثا وأخيراً: تدخلت الشركة في الشؤون الداخلية لحكومة الجزيرة، فعلى سبيل المثال قدّمت الشركة اقتراحا لتعيين ضباط أجانب في مصلحة الشرطة في الجزيرة (61).

وعلى الرغم من ذلك فقد قامت الشركة ببعض الأعمال الإيجابية؛ كشق الطرق وإدخال السيارات والطاقة الكهربائية؛ وقد دفع الوجود الأجنبي بعض العرب لتبني مظاهر الحياة الغربية؛ فإشراق على سبيل المثال أسست جمعية النساء العربيات على غرار الجمعية التي أسستها السيدة فلورين وهي شخصية بريطانية (62).

إن وجود الأجانب، زيادة على محاولات بعض العرب تقليد الحياة الغربية، أفرز ردود أفعال متباينة تتمثل في ثلاثة اتجاهات لكل اتجاه شخصياته، أولا: دعمت السلطة السياسية ومساندوها الاستثمار النفطي والتدخل الأجنبي، واستند هذا الدعم على أن النفط

يقدم كثيرا من الأمور التي تحسن الظروف الحياتية في الجزيرة. بيد أن الرواية تــشي من زاوية أخرى بأن هذا الاتجاه مدفوع إلى الدعم لتحقيق مكاسب شخصية. أما الاتجاه الثاني فيرفض النفط والوجود الأجنبي معاً، لقد أطلق سكان "الطاهرية"- وهي العاصمة التاريخية التقليدية للجزيرة- على النفط اسم" شمروخ"، وهو اسم لجِنٍّ؛ لاعتقادهم بــأن النفط تحت سيطرة الأجنبي ولا يفيد منه أبناء الجزيرة، لقــد ســاووا بــين شــمروخ والاستعمار الغربي، ودعوا إلى تدمير المنشآت لتحرير بلادهــم(63). وقــد ســوغوا رؤيتهم على لسان "نعسان المبارك" أمير الطاهرية بأن النفط يفسد القيم الأصيلة" ويهدد مبادئنا الدينية وهويتنا" (64). وثمة اتجاه مثّله الجيل الجديد من أمثال الأميــر همّــام وشهاب قائد العمال، وهؤلاء لا يرفضون النفط، ولكنهم يقاومون هيمنة الأجنبي علــى الشركة والشؤون الاقتصادية. العمال طالبوا بأن يكون لهم دور في الشركة. ويبدو أن تيمور الذي يدين التدخل الأجنبي، ويدعو إلى تبني القيم الإيجابية في الحياة الغربيــة- يدعم، بوضوح، أفكار الاتجاه الثالث. وهذا الاتجاه يُبدي اعتزازا كبيــرا بالحــضارة العربية الإسلامية، ولكنه يعتقد أن التعليم ضروري لإحياء الأمة العربية؛ ومــن هنــا يكون من الحيوي الاقتراض من الحضارة الغربية. ويرى همّام، الشخصية المركزيــة في الرواية، أنّ الحضارة الغربية إنما تكوّنت نتيجة إنجاز بشري، ومن هنا فلا ينبغــي أن تُرفض. وهو في هذه المسألة يسعى إلى الاحتفاظ بهويته وشخصيته القومية مع تبنّي الحضارة الحديثة(65).

حين رسم عبد الرحمن منيف صورة للأرض العربية قبل ظهور النفط وبعده في وادي العيون وعجرة وحران وغيرها من أراضي المجتمع الروائي، وضع يده علــى نقطة الصراع التي شكلت أكثر من ثنائية ضدية عاشتها الأرض في تلك الحقبة: صراع الحضارة / البداوة، النفط / الماء، المثل / التحرر الأخلاقي.... الانتماء إلى الأرض / والانسلاخ عنها.

ولعل في الحواريات التي دارت بين أهل وادي العيون ما مثل هذه الثنائيــات ؛ فقد حاول متعب الهذال أن يبرز وعيا بدا سريعا انفعاليا، ثم تبلور موقفا صلبا وهو، أيْ

الهذّال، كما يصوره النص أحد أبناء الأرض المخلصين والبدو الأصلاء الذين استشعروا بفطرتهم ما يمكن أن يؤول إليه مجيء الآخر واكتشاف النفط في باطن وادي العيون من ضياع لكل ما هو جميل : البراءة، الأخوة، الروابط الإنسانية، الماء، الأشجار، جمال الطبيعة... الخ. يرصد النص ما حدث بإسهاب فها هو المعسكر يقام والآلات تهدر والعيون تنظر بريبة وخوف يصل إلى حد الفزع إلى هؤلاء القوم. ماذا يريدون ؟وعم يبحثون ؟

جاءت هذه التساؤلات مبررة ؛ نجمت عن العزلة واستعذاب المعاناة. فبمقدار ما يحمل وادي العيون من مظاهر القساوة وغضب الصحراء المحيطة به، يحمل أيضا معاني التلاحم والتواد والتصاق الإنسان بالأرض إلى درجة الاتحاد. ولعل الفزع الذي يشعر به الناس ناجم عن الخوف من تغير شكل الأرض والطبيعة، وبالتالي تغير شكل الإنسان وزعزعة قيمه. وتحذير الهذال يكشف عن وعي بضرورة المحافظة على الأنا، والأرض هي الأنا، هي الرحم الذي يحتضن البشر، ومما يعزز ذلك أن وصف الوادي ووصف الصحراء قدم بطريقة شعرية تمزج البشر بأحزانهم وأفراحهم ـ بالأرض، وتشي بأن ما يصيب الأرض يصيب البشر وأن مستقبل البشر مرتبط بمستقبل الأرض. وهنا يتجاوز منيف وادي العيون وغيرها من المناطق لينصرف التشبّث بالأرض إلى كل أرض عربية.

إن بنية الاستهلال السردي في " التيه " تثبت أن منيفا يلجأ دائما إلى أنسنة الأرض: " إنه وادي العيون..." استهلال يوحي بالشوق، والجملة بإيقاعها " فاعلاتن فاعلاتْ " تستدعي الحداء وما يحمله من إشارة إلى الحزن والفرح في آن معا، زيادة على ارتباط هذا الإيقاع وتردّده في الصحراء.

إنّ ردة الفعل الأولى التي جاءت على لسان الهذال سريعة وصارمة تشبه الفعل نفسه: إذ جاء الآخر سريعا ودونما استئذان، ألوان الأمريكيين وأشكالهم أثارت الذعر، كأنهم جنس غريب نزلوا من السماء وما قام به هؤلاء من فعل في الأرض أفضى بالضرورة إلى ردة فعل مشابهة. وهنا يحذر متعب قومه قائلا: "ارجعوا يا أهل وادي

العيون، إذا لم ترجعوا حرقتكم النار وما بقي منكم أثر"(66). وقد جاء خطابه موجّهاً إلى الجماعة؛ ممّا جعل بعض الدارسين يعدون هذه المسألة سمة ملحمية في الرواية؛ فقد أوضح العتابي كما أوضح غيره في محاولة إثبات الملامح الملحمية في الرواية أن ضربات الماكنة الأمريكية للكشف عن النفط اكتسبت بعدا أسطوريا، ويحلل أسباب مقاومة متعب الهذال لهذا الفعل فيقول:

"عندما يقود ابن الهذال الصراع ضد الجهات الأجنبية والمتعاونين معهم في التنقيب عن النفط في وادي العيون، وما يرافق هذا التنقيب من تغيير في البنية الطبيعية والاجتماعية للوادي، وذلك انطلاقا من وعي ابن الهذال بالأشياء والعلائق المحيطة كظواهر مرتبطة بحياة الإنسان ومستقبله، لذلك فإنه يمثل المجموع لا الفرد، فهو مجموع في فرد يحمل هموم الجماعة ويعبر عن أمانيها وتطلعاتها وذلك لما يحمله ابن الهذال من رؤية وسلوك يومي محكوم بالفضاء الروحي الذي تسبح فيه أفكاره وتصرفاته "(67).

إذن الهذال ليس فردا إنما هو مجتمع يمثل اتجاها كاملا من ردود الأفعال الرافضة لهذا الجديد، صحيح أنه في البداية عبر عن ردة فعل منفردة نابعة من وعي بسيط لمن حوله لما سيؤول إليه الوضع، صحيح أنه بدا وحيدا على الساحة يحارب مثل الدونكشوت حين كان يقاوم طواحين الهواء وسط سخرية الجميع واستخفافهم بالأمر، ولكن مخاوفه تحققت وبان للجميع صدق نبوءته.

أقيم معسكر للأمريكان وبدأوا بوضع سياج من الأسلاك في وادي العيون بمعونة الأمير ورجاله وعلى رأسهم الشيخ راشد الذين خدرتهم الدراهم وليرات الذهب الإنكليزية والرشادية التي كانت توزع بسخاء، ولكنهم رحلوا ومعهم الأدلاء، ومتعب لم يقتنع بهذا الرحيل، وإنما اعتبره دليلا أكبر على الشؤم... وقال :

–الجماعة عندهم سالفة، والماء حجة...

– يدورون عن جن، عن عفاريت ما يندرى، لكن ابشروا يا أهل الوادي: إذا طلع الشيء اللي يدورون عليه ما ظل منكم أحد حي(68).

ويقول في موضع آخر ردّا على ابن الراشد الذي يؤيد الأمير في أن ما يهمهم هو الماء:

ـ اسمع يا ابن الراشد، ما يهمنا الماء وغير الماء، وانت تعرف: انا بالظهرة، وحريمي ما ينزلن للعين، وكل ما عندي بسيتين صغيّر، يمكن أن اتركه وامشي، الناس في الوادي يهمها الماء وغير الماء، يهمها العرض، الناموس، وما نريد احد فوقنا، وما نريد هالكفار الخنازير صبح وعشيه، واليوم بهذا الشكل، بعد كم يوم ما نعرف وش يصير(69).

يكشف المقطع الحواري في هذا المشهد عن أحاسيس الحقد والعداوة تجاه الآخر والسؤال الذي ينبغي أن يقف هنا هو لماذا الحكم المسبق على وجود الأجنبي ؟ إن الإجابة على هذا السؤال لم تقدم بصراحة في النص الروائي، ولكننا لن نذهب بعيدا لإيجاد تفسير لهذا الموقف، فالمجتمع الروائي جزء من الأمة العربية التي شكلت في ضميرها الجمعي صورة سلبية تجاه الآخر، وذلك لما قام به هذا الآخر من أعمال سلبية معادية للعرب والتاريخ يقف شاهدا على ذلك ويكفي الإشارة هنا إلى الحروب الصليبية والاستعمار الحديث في شمال أفريقيا وغيرها، وربما يحدث مثل ذلك لمجيء الأمريكي إلى أرض النفط. ولعل منيفا في هذا المقطع يرى في أن يقدم استباقا لشخصية أسطورية ملحمية تؤسس ملامحها على ضوء أحداث سابقة، أي أن منيفا يرى في أن يمهد لظهور بطل شعبي يمثل ضمير الأمة كما سنرى.

لقد تجلت صورة متعب الهذال بطريقة امتزج فيها الواقع والخيال، ولعل الكاتب توسل بهذا التصوير للكشف، كما أسلفت، عن عمق الرفض العربي للآخر. وكان ذلك في بدايات وصول الأجنبي للأرض العربية إذ إنَ مشاعر الخوف والترقب والحذر ومحاولة الحفاظ على الهوية جعلت العربي يصور الآخر سلبيا معتديا يحاول انتزاعه من جذوره.

اتسمت شخصية متعب الهذال بالبعد الأسطوري منذ بداية ظهورها، فتبدو شخصية متعب فريدة من نوعها في شفافيتها وصدقها وإحساسها المبهم بما يمكن أن

يحدث لأهله وعشيرته وأبناء جلدته من جراء قدوم الأمريكان إلى وادي العيون وتنقيبهم عن الذهب الأسود. فهو يتمتع بإحساس فطري جارف يؤهله لاستشراف الحوادث والتنبؤ بوقوعها، فحين رزق بأخر أبنائه الذكور سماه " مقبل " وقال حين وصلته البشارة بمقدم الغلام:

ــ إذا أقبلت ــ أقبلت. ويقصد الحياة.

والصغير مقبل يحمل في طيات اسمه من الضديات والتناقضات العجيبة الشيء الكثير، مما ينبئ عن ذكاء فطري وحدس لا يخيب قد وهبه الهذال؛ فهو مقبل لأنه ارتجى أن يقبل عليهم بالخير والبركة وهو مقبل لأن الأمطار تلك السنة كانت غزيرة، ولكن شعورا غامضا اجتاح الرجل بأن أشياء أخرى سوف تقبل على الوادي، لا يعرف ما هي بالتحديد لكنه أحس بها. وقد تنامت أحاسيس متعب الهذال بأن شيئاً خطيراً سوف يحدث لوادي العيون بعد أن سمع حديث ابنه فواز عن ضيوف غرباء نزلوا بمضافة ابن الراشد.

" ــ عند ابن الراشد ضيوف غرباء. " (70)

سقطت كلماته بين الجمر وأصوات الدلال، وظل أبوه يواصل عمله كأنه لم يسمع، فأضاف الابن: "ــ من الإفرنج ويتكلمون العربي " (71).

منذ هذه اللحظة بدأت متاعب البطل متعب الهذال، وحمل على عاتقه قضية من أخطر القضايا التي تتضمنها الرواية، وهي قضية الدفاع عن وطنه وأرضه ومحاولة تجنيب البادية اقتحام " العفاريت الكفرة " على حد تعبيره. لقد قال فيما بعد:

ــ لازم نعرف كيف نمنعهم من الوصول، وإذا وصلوا ندفنهم أو نهججهم ونلعن والديهم (72).

لقد بدأت مخاوفه تتحقق حين بدأ الغرباء " الأمريكان " ينقبون في الأرض هنا وهناك بمباركة ابن الراشد وأمير المنطقة اللذين أسكتتهما الدراهم وليرات الذهب. ولا ينبغي لحادثة اجتثاث الجارفات الأمريكية للنخيل من الأرض العربية من أعماقه أن تمر دونما التفاتة. إذ إن اجتثاث النخل من الأعماق يكتسب بعداً رمزياً يفضي بالضرورة في

عقل المتلقي في المجتمع الروائي إلى محاولة الأجنبي اقتلاع العربي من جذوره. وبمعنىً آخر انتزاع العربي من هويته الوطنية والثقافية والدينية. وقد عبر الهذال عن ذلك بغير طريقة، لقد كان ما حدث فعلا "مجزرة" على وفق تعبير السارد؛ وكان ثمّة إحساس واضح لدى الهذال بأنّ ذلك سيحدث. وأجدني مضطرة إلى اقتباس مقطع طويل لجلاء أحاسيس الهذال وعمق عذابه، وإيضاح مدى تعلقه بالأرض ومفردات الطبيعة؛ لأنّ الرجل الأسطورة يستحيل حنانا، وكبرياءه تستحيل دمعاً كاويا يحفر في الأعماق ويمزق نياط الفؤاد ويحرق الأكباد، وفضلا عن ذلك يوضح الاقتباس القساوة التي عانت منها الأرض والأشياء، والحزن الذي هيمن على الناس يقول السارد:

"نظر إلى كل ما حوله وكأنه يودع الأماكن والأشياء، رأى سربا من القطا يحوم. نظر إلى الرجال في المعسكر، امتلأ إحساسا بالنهاية، وما كادت تلك الآلات المجنونة تبدأ الحركة حتى صرخ صرخة حادّة موجعة:

–حسافا.. حسافا... يا وادي العيون! (...)

التراكتورات وهي تهجم مثل ذئاب جائعة على الأشجار وتبدأ تمزقها وترميها أرضاً الواحدة بعد الأخرى، ثم بعد ذلك تُسوّي بين شجرة وثانية، بين الساقية والأرض التي حولها، حتى إذا انتهت من مجموعة من الأشجار هجمت بنفس الضراوة والوحشية على مجموعة جديدة وبدأت تقتلعها. كانت الأشجار وهي تميل وتترنّح، قبل أن تسقط، تصرخ، تستغيث، تولول، تجنّ، تنادي نداء أخيرا موجعا، حتى إذا اقتربت من الأرض هوت بتضرّع، وكأنها تحتج أو تريد أن تلتحم بالتراب من جديد، في محاولة لأن تنبثق، لأن تنفجر مرة أخرى".

"هكذا بدأت مجزرة وادي العيون، وهكذا استمرت حتى أتت على كل شيء، ومتعب الهذال الذي شهد بداية المجزرة لم يشهد نهايتها؛ لأن الرجال الذين وصلوا على صوت الآلات المجنونة، ووقفوا يرقبون ما يجري أمامهم، وبعد أن أفاقوا من الذهول الذي سيطر عليهم خلال الفترة الأولى، والتفتوا ورأوا ابن هذال، قال هؤلاء الرجال أشياء كثيرة شديدة الحزن، قالوا إنهم لأول مرة في حياتهم يشهدون رجلا مثل متعب

الهذال يبكي. كانت دموعه تتساقط بغزارة، لكن بصمت أيضا. كان صامتا تماما. لم يتفوه بكلمة واحدة. لم يشتم... فقط كانت دموعه تتهمر، ولم يكن خجولا أو خائفا، ولم يكن فخورا أيضا، كان ينظر من خلال الدموع إلى الوادي كله، كان ينظر بصمت ويهز رأسه". (73)

وقد علق محمد الشوابكة على هذا الموضوع بقوله:

"وكلما بدأت عمليات الاجتثاث تتحقق زاد إحساس الإنسان بأنه جزء من الأرض. وأول محاولة هدفت هوية وادي العيون تحديداً كانت عندما هاجمت تراكتورات الأمريكيين الأشجار واقتلعتها من جذورها. وكان هذا الهجوم موجهاً مباشره إلى هوية المكان والإنسان الذي يسكنه" (74).

الأجنبي يقتلع شجرة فتثور ثائرة العربي لأنه يحس ويعرف بالفطرة أن معنى هذا الاقتلاع ليس اقتلاع لشجرة وحسب. ويضيف الشوابكة في نفس الموضوع:

" ولأن الاقتلاع يشير إلى الوصول إلى الأعماق، إلى الجذور. فإن المحاولات لا تقف عند حدود السطح وإنما تتجاوزها إلى محو الهوية بشكل كامل. وكأنها معادية لوجود الإنسان وحياته. أما ردّة الفعل فكانت جدّ قوية تتناسب مع الظروف الموضوعية التي رسمتها الرواية. وقد جسّدها متعب الهذال كما جسدتها مقاومة الطبيعة، فعناصر المكان تمتلك الكثير من أسباب الرفض، وقد صوّر الكاتب مقاومة الشجر والحجارة للاقتلاع تصويرا شعريا مؤثرا؛ فقد كانت الجرافات تنهش الأرض بحقد، وكانت الأشجار تصرخ وتئنّ معبّرة بذلك عن تشبّثها بهويتها مقاومة كل محاولات الاقتلاع، وتتحوّل كل ذرة من تراب المكان إلى صرخة مدويّة في وجه القهر والاستلاب(...) أما تأثير هذا الاعتداء على الإنسان(كما ورد في الاقتباس السابق) فعميق يقف برهانا على ما يقال بأن حس المكان... حسّ أصيل وعميق في الوجدان البشري، وخصوصا إذا كان المكان هو وطنُ الالفة والانتماء الذي يمثّل حالة الارتباط البدئي المشيمي برحم الأرض- الأم، ويرتبط بهناءة الطفولة وصبابات الصبا، ويزداد هذا الحسّ شحذاً إذا ما تعرّض المكان للفقد أو الضياع ".(75).

وعلى الرغم من قساوة الطبيعة التي برع منيف في وصفها بدقة مستخدما ألوان التشخيص: السماء قريبة ثقيلة وكأنها قبة من رصاص الغبار الكثيف...، فإنّ الإنسان يرتبط بالأرض ارتباطا عميقا، وموقع حران، مثلا، في منخفض من الأرض يشبه حضن الأم (76). ومرة أخرى جاءت ردة الفعل تجاه هذا الاقتلاع قوية تتناسب مع قوة الفعل. وقد بدأها بطلنا الأسطوري بالشتائم، وقد كان هو الوحيد الذي يجرؤ على الشتائم، والتعبير عن مخاوفه في مضافة الشيخ ابن الراشد (77).

ويعجب القارئ من بذاءة لسان هذا البطل، لكنها بذاءة مبرره. وقد تكون مغتفرة لأنها مشفوعة بطيبة الرجل وخوفه على أبناء جلدته، لقد نعتهم بالكفرة وأبناء الزواني، ونُقِل أنهم سمعوه يصرخ:

"يا أولاد الزواني، يا أحجار القراني، سأنتقم منكم قبل أن ينتقم الواحد القهار(78).

إن هذه البساطة والعفوية والسرعة في إلقاء الشتائم تشي بالحرص الجليّ على هوية المكان والإنسان، ولكن النص لم يكشف عمق انتمائه صراحةً، إلا بعد أن بدأت الملامح الأسطورية تبدو شيئاً فشيئا، بطريقة تمكن القارئ من أن يتدرّج في تتبّع الأحداث التي تُفضي إلى أسطره الشخصية، وتأخذ هذه الأحداث شكل الاختفاء ثمّ الظهور بطريقة مفاجئة تتناسب بالضرورة مع أفعال الناس وطريقة تعاملهم مع الآخر وردود أفعالهم تجاهه. إذن تبدأ الملامح الأسطورية والملحمية بالظهور تدريجياً، ومنيف نفسه يعترف بذلك في تعليقه على روايته:

" يختفي متعب الهذال بما يشبه الأسطورة. يتحول إلى رمز وحافز رفضي وأمل غامض بمقاومة ما سيأتي ـ كأنه التعبير الخفي عن هواجس وتساؤلات مطروحة ومحاولة على المستقبل" (79).

لقد كان الخراب الذي حل في وادي العيون خراباً أسطورياً سلب من الناس براءة الحياة وحالتها الطبيعية المنسجمة مع الطبيعة نفسها، فأنتج هذا الاضطراب والتشتت حالات فردية تسمو على المألوف العادي؛ ومن هنا ولدت أسطورة رحيل الهذال. ويعلق العتابي على هذه المسألة المتفرّدة بقوله:

"يُعدّ رحيل الهذال وعودته لأكثر من مرة أحد أهم الملامح الأسطورية في هذه الخماسية فقد أصبح الهذال أسطورة متعالية على الموت. أسطورة بحضوره وغيابه المفاجئ المتكرر الفاعل".(80).

إن أحد أهم الملامح الأسطورية للشخصيات هي: التعالي على الموت، فالموت لا يقدر عليها ولا يعد هاجسا مقلقاً لها. ومن هنا يحق التساؤل لماذا يكون الهذال شخصية متعالية على الموت ؟ إن الجواب في الرواية ذاتها وهو ما أكسب الهذال بعداً رمزيّاً منزاحاً عن المُتواضع عليه:

" لكز ناقته فاهتزت اهتزازاً قوياً وهي تنهض. وبدأ متعب الهذال وهو يرتفع مثل خيمة ثم بدأ مثل غيمة، أما حين بدأ حركته السريعة فقد أصبح مثل طير. وبدأ يبتعد ويبتعد حتى تلاشى واختفى "(81).

خيمة فغيمة فطير، هذا هو التصوير الأسطوري لغياب الهذال. ثم كلمة تتلاشى. والتلاشي هو الفناء والانتهاء، لكن هل تلاشت الشخصية فعلاً أم بقيت؟ وهل بقاؤها وظهورها هو ظهور حقيقي جسداً وروحاً أم أن ما خلقة الهذال في نفوس الناس هو ما أعاد ظهوره بهذا الشكل الأسطوري؟

"تكمن قيمة الفعل البطولي هذا في كونه يمثل الفعل البطولي الفردي الذي يمثل الجماعة ويحرك روح البطولة والتحدي الكامنة في روح المجتمع رغم غيابه عنه". (82).

نعود ونقول: إن الهذال فرد في مجتمع. فعله فردي يمثل جماعة ربما لم تظهر الكثير من ردود الأفعال أثناء وجود الهذال في وادي العيون لكن غيابه واختفاءه عن الساحة ترك المجال لظهور ردات الأفعال بشكل كبير، فقد كان هنالك بعض الردود التي نُسِجت على نوّل الهذال، يقول العتابي:

" كان يمكن أن تغيب ذكرى الهذال حول ظهوره الأسطوري المتكرر، الذي خلق روح التحدي لدى العرب في حران فبعد مغادرته وادي العيون، كان يظهر في كل عمل بطولي أو أي نوع من المقاومة" (83).

إن شخصية الهذال في تقديري تمثل إحدى وجهات النظر تجاه الآخر وهي الرفض المطلق وليس منيف وحيداً على هذه الساحة في هذه المسألة بالذات وإنما سُبق بمحاولات كثيرة، ومن منطلقات مختلفة أهمها رفض هيمنة الآخر. وإذا كان دافع منيف كما يظهر في مدن الملح هو حماية الذات والآثار من الاحتلال والهيمنة، فإن توفيق الحكيم في عصفور من الشرق رسم محسناً بصوره ترفض الآخر رفضاً مطلقاً ولكن لأسباب لا تخفى على أحد أبرزها الحكيم في روايته ويمكن إجمالها في رفض الروح المادية للحضارة الغربية. وهنا يكْمن الاختلاف بين منيف والحكيم على عدة مستويات ففي حين يعيش محسن في باريس نفسها وينهل من حضارتها ويرفضها في الآن نفسه، فإن متعب الهذال يأتيه الآخر إلى عقر داره ولكنه لا ينظر إليه بوصفه حاملاً لحضارة مادية وإنّما بوصفه مُحْتلاً يسعى إلى استلاب الهوية واستثمار الثروة لصالح شعوبه وليس لصالح الشعب العربي من منظور روائي.

ولا أظنني ملزمة بأن أسرد الروايات العربية التي سبقت منيفاً ورفضت الغرب لأسباب متعددة ويكفي الإشارة إلى "جسر الشيطان" لعبد الحميد جودت السَّحار الذي اختلف إلى حدٍّ ما عن منيف ولكن الشخصيتين الرئيسيتين رفضتا الغرب لأسباب تتعلق بالهوية. إذْ يتوجَّه بطل الرواية علي إلى "همبرغ " في ألمانيا مُرْتَدياً عباءة الواعظ، مبرزاً مجموعة من التناقضات بين الشرق والغرب، لافتاً الانتباه إلى مسألة تشييء الإنسان وتحويله إلى سُلعة تباع وتشترى. وقد حاول الكاتب أن يجعل عليا أداة لهداية آني –الفتاة التي تعرف إليها وهي تعمل في ملهى– لتجنب الانحراف الأخلاقي مُهدياً صاحبته تحفة من خان الخليلي كتب عليها عبارة دينية، وقد استطاع علي أن يغيّر من اعتقادات آني بيد أنه أخفق في تغيير سلوكها. لقد انتهى البطل إلى أن " الغرب مريض" (89) وأن الدين/ الإسلام هو العلاج الشافي لأمراض العصر، ولكن الكاتب اتجه إلى المباشرة والتقريرية، مما جعل عمله ضعيفاً إلى حد كبير.

ومنيف، رغم تعاطفه الجليّ مع الهذال في الرواية، يدرك في تعليق له على الشخصية في كتابه " الكاتب والمنفى " أن إيقاع الحياة المتسارع بعد تدفق النفط جعلَ من استمرارية الهذال أمراً مستحيلاً ويقول عن بطله متعب:

"متعب الهذال بطل العصر الماضي. لقد انتهى ويجب أن ينتهي أياً كانت العواطف التي نكنّها له، لأنه إنسان حقبة انتهت، وإذا كان لدية تشبثات وأحلام حاول من خلالها أن يمنع الحياة الجديدة في تدفقها أو أن يستعيد فترة ماضية، فإنه لن يستطيع ومن غير المجدي أن تستمر محاولاته، وأفضل شيء فعله أنه حمل أحزانه إلى أعماق الصحراء وانتهى هناك كجزء من الصحراء أو كجزء من فترة زمنية ماضية". (90).

ربما انتهى متعب الهذال كجسد لكنه ظل موجوداً كروح، وربما أصبح جزءا من التاريخ، ولم يعُد له مبرر للاستمرار- كما سنرى في الاقتباس التالي- إلاّ أنّ هذا التاريخ يظلّ محفورا في الذاكرة، ذاكرة المقاومة والمحافظة على الهوية رغم تبدّل الأزمان؛ لم ينسَ أحد متعب الهذال ولم تغب ذكراه. يضيف منيف متحدثاً عن متعب:

"ومتعب الهذال ذاته الذي كان كل شيء في وادي العيون، عندما كان وادي العيون، لم يعد له مبرر لأن يستمر بعد زوال هذا الوادي. وبعد أن عبر عن رفضه باحتجاج صحراوي لا يجدي إزاء التطورات الجديدة التي بدأت طريقها وتملأ بدويّها الصحراء كلها " (91).

نعود ونقول: إن متعب الهذال مثل اتجاه الرفض المطلق للآخر. وطالما نتحدث عن هذا الاتجاه فينبغي الإشارة إلى رؤية واتجاه آخر من خلال المجتمع النفطي. وقد أشرت إليها مسبقاً يمثلها الأمير وابن الراشد والدباسي وآخرون، وهي كما ذكرت شخصيات كانت خير معين للآخر ليثبت وجوده. أي القبول المطلق دون النظر إلى ما يمكن أن يترتب على وجود الآخر من أثار سلبية، ويقترب من هذا الاتجاه اتجاه آخر مال إلى الدعوة إلى الصبر والتريُّث لمعرفة ماذا يمكن أن تفضي إليه الأمور، ويؤمن بعض من مثّله أن ما حدث إنما هو قدر من الله. وعلى الرغم من أن ابن النفاع يمثل المجموعة

التي تكره الأمريكي، فإنه بقي سلبيا ولم يقاوم. وهذا الموقف وإن بدا عقلانياً مقنعاً إلى حد ما. فإنه يمثل من وجهة نظر الهذال والآخرين انتصاراً مبدئياً لمجيء الأجنبي.

هكذا انتهى الهذال في أعماق الصحراء وهكذا بقي موجوداً. لم يمت الهذال وكان أكثر حياة في أذهان تلك الشخوص التي خالفته ونصرت الغريب عليه، أي أنه بقى حياً عند كل شخص وقف في الجانب الآخر والطرف المقابل، عند كل إنسان مثل اتجاه القبول المطلق. أمّا كيف تم ذلك فسيأتي الحديث عنه حين نتحدث عن اتجاه القبول المطلق لهذا الجديد.

حين تقلب صفحات التيه التي تمثل مرحلة الصراع الأولى عند ظهور النفط، تثير اهتمامك شخصية متميزة ترمز بطريقتها الخاصة إلى الانتماء إلى الأرض.وهي إن لم تظهر بشكل أسطوري، فإنها قوية الصلة ببطلنا الرئيس في هذا الجزء من الرواية. شخصية امتازت بكثير من صفات متعب الهذال وربُّما ارتبطت بها إلى حد ما بكثير من المواقف. إنها " أم الخوش ". تلك المرأة العجوز التي تنتظر الغائب: ابنها الوحيد الذي سافر ولم يعد. اختفى دون إنذار وبلا مبررات واضحة. حتى انتهى مجيء الأخبار التي تريح الأم. فأيقن كل من حولها بوفاة الخوش، يقول أحمد جاسم الحميدي:

"يبدو انتظار أم الخوش بنظر الجميع في البداية انتظاراً يائساً وعقيماً ؛ لأنه انتظار للمستحيل، فالخوش بحكم الميت في نظرهم ولكن أمام إصرارها على الانتظار القاسي، يصبحون مثلها ينتظرون قوة خفية إلهية أو غير إلهية تقذف به إليهم "(92).

كانت أم الخوش تزداد أملاً حين تأتي القوافل، أما إذا رحلت فكانت تدور الوادي منذ الفجر وحتى الغروب أو بعده قليلاً وفي ذلك الطواف الذي لاينتهي تخاطب الكبار والصغار. تتحدث مع الأشجار والحيوانات، تسأل كل من يصادفها إن رأى الخوش أو سمع شيئاً من أخباره (93). تبدو أم الخوش أحيانا مفعمة بالأمل، وتبدو أحيانا أخرى مثالا لليأس والإحباط، حتى غيّر ذلك من طباعها وسلوكها، وبدلا من أن تصبح مثار سخرية للآخرين، أخذت تحظى بالدعم والاحترام من الصغار والكبار، ويتعاطف معها الناس. ويستغرق السارد العليم في تحليله لأعمال هذه الشخصية ومسالكها على النحو

التالي:"وتستسلم فترة قصيرة لهذه النشوة، تضحك، تسافر، تحلم، ثم فجأة تجهش بالبكاء، كان بكاؤها حادّا مكتوما في البداية، ثمّ ما يلبث أن يصبح أقرب إلى الاستغاثة، حتى أن الإنسان لا يطيق أن يسمعه، فيترك الرجال المكان، أما النسوة والصبية فإنهم ينظرون إليها بدهشة ثم بحزن، وكثيرا ما كانت النساء يشاركنها في نحيب مكتوم، حتى إذا هدأت ران صمت ثقيل موجع، وإذا كان البدو، ووادي العيون بشكل خاصّ، لا يعرفون البكاء ولا يحبونه، ويستغربون كيف يبكي الناس أو لماذا، فإنهم حين يرون ذلك يصبحون أقرب إلى الضعف والحيرة ويغرقون في التشاؤم". (94).

أما إذا عدنا للحديث عمّا يقربها من الهذال فأهم صفه هي النبوءة بما سيحدث. فأم الخوش هي أول من تنبأ بحريق الوادي وخرابه. وإن لم يكن الحريق الذي تحدثت عنه بالمعنى الحقيقي إنما هو هذا الانقلاب في حياة الوادي الهادئ الذي يعد أكثر من حريق. لم تتنبأ أم الخوش بهذه النبوءة إلا بعد أن رأت الأمريكان. صحيح أنها لم تكن لتميز جنس هؤلاء الغرباء ولا الغاية من وجودهم في الوادي إلا أنها، بحدسها، ربطتهم بقدوم البلاء والحريق. وقد ربط سكان الوادي بكل صراحة بين الشخصيتين عندما لاحظوا ما بينهم من تشابه، فالهذال يكاد يُصاب بالجنون عندما يأتي ذكر" الشياطين"، وعامل الناس بطريقة غير مألوفة:

" لم يكن الرجل بهذا الشكل(يهمس الناس)...لكن "السودا" التي أصابت متعب الهذال لا أحد يعرف متى تخرج منه، ثم يضيفون:" أصبح مثل أم الخوش لا يمكن التفاهم معه أم الخوش تذرع الوادي من أقصاه، وقد بدت أكثر من أية مرة سابقة، مشعثّة الشعر، شديدة الحزن والانفعال. وكانت تردد كلمات بدت غريبة لكل من سمعها " قبل حلول الحول تقوم القيامة تقوم بالوادي ويحترق "(95).

هذه النبوءة التي تعلنها " أم الخوش " عن القيامة واحتراق الوادي ليست مساً من الجنون وإنما هي جزء من الفضاء الروحي الذي يعم الوادي بكامله. وهذا الفضاء الروحي يتكئ على شيءٍ دوماً، لذلك فإن أم الخوش تربط الحريق والقيامة، بابن الراشد، لأنه أهانها أمام ضيوفه الأمريكان "(96).

لم تكن أم الخوش تفرق بين هؤلاء الغرباء وابن الراشد في المعاملة. فما أن حلوا في وادي العيون حتى تنبأت بقيام القيامة واحتراق الوادي وما أن حاول ابن الراشد إهانتها عندما حضرت لتسأل عن ولدها كالعادة:

ـ خذوا البلية من وجوهنا (97)

حتى جاءت النبوءة الثانية:

ـ سيحترق هذا الوادي.. وأنت أصل البلاء (98).

وحتى لا ادخل في شخصية جديدة هي ابن الراشد والتي سيأتي الحديث عنها لاحقاً نعود إلى أم الخوش وعلاقتها بمتعب الهذال. العلاقة بين أم الخوش والهذال قوية تمتد من الفضاء الروائي والتماهي المطلق والكلي داخل الحياة الجماعية إلى حس النبوءة فالقيامة التي تتحدث عنها أم الخوش يعود ليؤكدها الهذال(99):

ـ يقولون: يوم القيامة ؟ اليوم يوم القيامة. يقولون إذا مشى الحديد على الحديد ؟ اليوم رأيت الحديد يمشي على الحديد (100).

لم يكن هذا التناغم في الأحاسيس بين أم الخوش ومتعب الهذال هو الوحيد؛ فلم يتوقف الأمر على هذه النبوءة بل تجاوزها إلى نظرة كل منها إلى هؤلاء الغرباء وتفكير كل واحد. صحيح أن نظرة متعب الهذال تبدو أكثر عقلانية وواقعية، لكن نظرة أم الخوش وإن بدت من باب المس والجنون وتتجاوز ذلك إلى مساحة واسعة من الخيال إلا أن كلتا النظرتين تصبان في سيل واحد هو الخوف من هذا الجديد الغريب، الخوف من المستقبل وما سيحمله معه. قضية أم الخوش هي الخوش ابنها الوحيد وقضية متعب الهذال هي وادي العيون. وأم الخوش تصر على أن هؤلاء هم قتلة الخوش، وكذلك متعب الهذال يرى أن هؤلاء ما جاءوا إلا لقتل الناس وتغيير معالم هذا الوادي الآمن وادي العيون.

الخوش جزء من الأرض وابن لها، وغيابه أو موته يعني تغييرا ما سيطرأ على الأرض بما تحتضنه من قيم وعادات واعتقادات، وهنا يربط منيف بين الإنسان والأرض، والأرض بلا إنسان وتجربة إنسانية شيء لا قيمة له، وكما يرى بعض

الدارسين: " وكلّ مكان مدان ما لم تجرِ عليه خبرة الإنسان"(101) ؛ وإذا كان الأمـر على هذا النحو، فإن أم الخوش متناغمة مع الهذال الأب فالخوف من كليهما إنما هـو خوف على الأرض والإنسان:

" لقد تأكدت أم الخوش بعد رحيل الأجانب أنهم ما جاءوا إلا ليبلغوا الوادي أمرا متعلقا بالخوش. ولهذا السبب أبعدوها عنهم، لم يتركوا لها فرصة لكي تسألهم وتعرف، وإلا لماذا بدا الفزع على وجوههم عندا اقتربت منهم في مضافة ابن الراشد، وصمتوا حين سألتهم هل قتلوه وجاءوا لكي يصالحوا على دمه ؟"(102).

بعد أن تأكد لأهل الوادي أن أم الخوش قد جنت ولم تعد تعي ما تقول وحتى بعد أن بدلوا معاملتهم لها ظل الهذال هو الأكثر عطفا وقربا منها. لذا فبعد أن رحل الهـذال ظهر افتقاد أم الخوش له من خلال الأسئلة:

- يا جماعة الخير يا أهل الوادي نسيت أسألكم عن متعب أبو ثـويني " ويـن متعب (103).

" وانكفأت أم الخوش على نفسها. الساهرون كانوا يسمعونها تحدث نفـسها. لـم يفهموا شيئا مما كانت تقوله ولم تعد إلى توجيه الأسئلة أو انتظار إجابة أحد. "(104)

يقول الحميدي معلقاً على علاقة أم الخوش بمتعب الهذال:

" فكلامها غير مفهوم بالنسبة للآخرين. هو اقترابها من الهذال الرمز. الحقيقـة فهـي وحدها تملك القدرة على الوصول إلى الحقيقة، لأن العلاقة بينها وبين الهذال هي علاقة من التعالي. بحيث لا يستطيع الآخرون فهمها أو الاقتراب منهـا. فالـسن والنبـوءة (والروح) والموت في المكان مع الحياة القديمة، والرحيل عن المكان مع رحيل الحياة القديمة، كل تلك العناصر تتداخل داخل الوحدة الأساسية التي هي وحدة الهـذال مـع الطبيعة"(105).

ربما يؤكد هذه المسألة نهاية الاثنين: الهذال شخصية أسطورية سَـمَتْ بِفعلهـا وعُمق أحاسيسها على بعض الناس، وكانت نهايتها الغياب، وأم الخوش أدركت بذكاء فطري غامض أن شيئاً ما سيحل بالوادي، وكانت نهايتها الموت،وطريقة موتها تحمل

بعداً رمزياً يتصل بالأرض، إذْ استيقظ الناس وإذا بالمرأة منكفئة على وجهها تبدو كأنها دُفِنت في أعماق رمل الصحراء، ولعلّها بذلك تؤكد معنى الحلــول(106) والالتــصاق والاتحاد بالأرض الذي رأيناه متجسّداً عند الهذال في مقاومته للآخر. والحقيقة أنَّ هذه المسألة تتكرر عند منيف في غير عملٍ روائيٍّ ؛ فعسّاف في رواية " النهايات " يُسمى مجنون القرية، ولكن الأحداث المتنامية فيما بعد تجعل منه أسطورة، فيتحول فيما بعــد إلى شخص استطاع أن يستعيد وعي الناس المفقود بالأرض وبقيمة أنفسهم وبضرورة المحافظة على التوازن بين الإنسان والطبيعة، أخذوا يبجّلونه ويعتــزون بــه وكانــت جنازته أخاذة قدّمها الكاتب بطريقة رمزية يقول عنها جبرا إبراهيم جبرا إنها أفــضل تصوير قرأه لجنازة (107). أمّا موت عسّاف فكان في رحلة صيد مع مجموعة مــن الناس، تهب عاصفة صحراوية، وفي اليوم التالي يعثر على عسّاف ميتاً ونصف جسده في الرمل وفوقه كلبه الذي يحرسه. أقول ذلك لأن هذا الموت يشكل أيضاً اتحاداً فــي الأرض، وتشبثاً بها.

إن ما يقابل الرفض التام المطلق هو القبول بدرجات متفاوتة لهذا الجديــد. وإذا كان متعب الهذال هو المثال على الرفض لأسباب سبق ذكرها، وإذا كان متعب الهذال ليس فرداً بل هو مجتمع، فإن الاتجاه الآخر أخذ أكثر من شكل وباركته أكثر من جهة. الجهة الأولى هي الجهة الحكومية ممثلة بالأمير والطرف الآخر هو المواطن العربــي في المجتمع الروائي ممثلاً بابن الراشد وشعلان ابن متعب الهذال إلى حد ما.

إن الحديث عن هذه الفئة الباحثة عن المصلحة العامة تجعلنا نتحدث عن مواقف مغايرة ومتناقضة تماماً لما كانت علية الفئة الأولى، الفئة الرافضة: فإذا كــان متعــب الهذال مثالاً ونموذجاً للالتحام بالمكان وشخصيةً تجسد بكل شفافية الحبّ والانتماء لكل ما هو أصيل. فإن ابن الراشد كما يقول الشوابكة: " كان ممن فقدوا هويتهم وصــبغتهم التي اكتسبوها من ارتباطهم أصلاً بالمكان... تعاون مع الأجنبي وأمعن في القطيعة مع الأرض التي عاش عليها. وكذلك شخصية شعلان بن متعب الهذال، وتشير الرواية إلى أن اندغام الإنسان في الجديد وانتمائه إليه سيفقده جزءا من ذاته، ولكن ذلك لا يعنــي

محاربة القديم والتقدم العلمي إلاّ بمقدار ما يسبب استلابا للذات وانسلاخا عن الأرض".(108).

أما أساس هذا الموقف ورأسه فهو الأمير الذي قابل كل الذي يجري ببرودٍ مصطنع وأعصاب هادئة؛ فعندما تجمع مجموعة من رجال وادي العيون بغرض محادثة الأمير بهذا الذي يجري في الوادي عرف ما في نفوسهم من حديث فتلقاهم بالطمأنة، مستبقا ما يمكن أن يحدث، محاولا تسويغ مجيء الأجنبي:

ــ ستكونون يا أهل وادي العيون أغنى الناس وأسعدهم وكأن الله لا يرى غيركم وتغيرت لهجته: لقد صبرتم وتحملتم كثيرا...الشهادة لله، أما الآن فسوف تعيشون وكأنكم في حلم، وسوف تتحدثون عن الأيام القديمة وكأنها سالفة من السوالف...

وعاد إلى لهجته الأولى:

-والخير، يا جماعة الخير، إذا عمّ عمّ.(109).

لقد عرف كيف يباغتهم وكيف يدخل إلى نفوسهم. هذه المقدمة من الكلام وإن كانت غامضة بعض الشيء إلا أنها تسعد النفس وتنحو بها إلى الطمع والسكوت عن كل ما يحدث. ورغم هذا لم يسكت الرجال وعلى رأسهم بن الراشد رغم ما آثاره هذا الكلام من حيرة وعدم فهم فقد واجه ابن الراشد كلام الأمير برد ما جاء ليقوله للأمير بقدر ما كان موجها إلى الآخرين، ورغم ما اعترى جوابه من رهبة وتردد إلا إنه قال:

ــ أنت تعرف يا طويل العمر، المال ما هو كل شيء في هذه الدنيا قبل المال، العرض، الأخلاق، العادات التي تعودنا عليها(110). وما كان من الأمير إلا أن أطلق ضحكة مجلجلة ارتسمت على أثرها علائم الحيرة على الوجوه وكأنه بضحكته تلك يخبرهم بأن هذه الأمور تهون وتسهل مقابل المال والذهب والخيرات. وفوق ذاك طلب منهم تقديم كل مساعده يحتاجها هؤلاء الأمريكان بحجة أنهم ما جاءوا إلا للمساعدة. وحين سأل ابن الراشد عن نوع المساعدة المقدمة ما كان من الأمير إلا الإجابة الصريحة بقولة:

ـ تحت أرجلنا يا ابن الراشد، بحار من النفط، بحار من الذهب والخويا جاءوا ليخرجوا النفط والذهب(111).

إن منطوق الأمير يكشف في بنائه السَّطحيّ عن وَعي ما بالقيمة الماديـة التـي سيوفرها تَفجّر النفط، وحتى لا يبدو التحليل منحازاً إلى السواد الأعظم من الناس، فإني أرى في خطاب الأمير سَعياً لاستثمار خيرات الأرض من أجل التطوير، ولاسـيّما أن الأمير يدرك أنَّ المدّ الغربي القادم لا يمكن تجنّبه؛ فمن الأولى والحالة هـذه القبـول بالأمر الواقع وإفساح المجال للشركات الغربية للتنقيب عن النفط الذي يشعر الأمير بأنه سيحوّل الصحراء إلى مدن كبيرة ويُدخل المنطقة بكاملها عالم العصر الجديد. بيـد أن خطاب الأمير حتى هذه اللحظة جاء ضبابياً لا يحلل ولا يفسِّر ما سيحدث، يعرف إنه يخلو من التنبؤ بما سيطرأ من تغييرات معنوية تصيب البناء الاجتماعي فكلمات مثل: " تحت أرجلنا بحار من النفط... بحار من الذهب " إنما تكشف عن طمع بالثروة التـي ستعمل ضرورة على تغير الحياة المادية، أما ما يواكب هذه الثروة النفطية مـن قـيم معنوية، وما يواكبها من انفتاح سريع على العالم، واستقبال لا مندوحة عنه للمنتجـات الغربية المادية والروحية؛ مما سيؤثر سلباً إن لم يتنبه له الناس– فكلها أمور لم يلتفت إليها الأمير، ولم يكن قادرا على وعيها. وفضلاً عن ذلك تجدر الإشارة إلى أن النظام السياسي القبلي المسيطر كان يفوّض الأمير أو الشيخ مسؤولية اتخاذ القرار فيما يتعلق بمصائر الناس، وإن كان بعض الناس أعمق وعياً منه بما ستؤول إليه الأمور، وإذا كان منيف يعترف صراحة ـ كما رأينا ـ خارج السياق الروائي، بأن متعب الهذال جزء من التاريخ وأنه يجب أن يموت أو يختفي، فإن منطق الأمور يتطلب أيـضاً القبـول بالنفط لعلّه يسهم في بناء الدولة المعاصرة. لكن الوعي المقابل لذلك، والذي قبل بعض الأمور على مضض، يرى في الجديد خطراً على الأخلاق والعرض ومنظومة القـيم، والحقيقة عند هؤلاء أن " النفط " رأس البلاء، وما جاء هؤلاء الغرباء إلا مـن أجلـه والأمير بدا وكأنه المستفيد الأول من هذا الجديد المدعو " النفط ". فهذه الحماسة وهذا الاستعداد الكامل لتقديم كل ما فيه خدمة الأمريكان وهذه اللامبالاة لما سـتؤول إليـه

الأمور وما سيأتي مع النفط من قيم- إنما يدل على ضعف انتماء وقلة وفاء للمكـان، والأكثر من ذلك الخوف على السلطة والمكانة. فلو لم يبارك الأمير هذا التنقيب فلـن يسلم، ولن يتركه الأمريكان وشأنه، ومع أن الأمريكيين لم يتعاونوا معه ليتقبـل هـذا الجديد، فإنه كان من أشد المؤيدين وخير عون لهم ليتمكنوا من السير قدماً فيما جاءوا من أجله.

لم يكتفِ الأمير بهذا الموقف فلم يكن يريد أن يبقى في نفوس الرجال شيء من ريبة. فبقي يحوم حول نفس الأسلوب. يأتي الرجال من حيث تؤكل الكتف فبالإضـافة إلى إغرائهم بالنقود أحس انه يجب أن يدعم ذلك برفع مكانتهم وإعلاء جانبهم، وإن لم يكونوا في نظره بهذا المستوى. إنه بمعنى آخر يحاول تغيير المـستقرات بطـريقتين: الأولى: تغيير في المواقع الاجتماعية؛ فالمعارض لهذا المشروع يجب أن يتراجع مـن حيث المرتبة الاجتماعية؛ ومن هنا ستفرز قيادات اجتماعية جديـدة وتـزول قيـادات تقليدية، بقطع النظر عن الكفاءة والأصالة. والثانية: تبشر المساندين بالغنى، أي شراء الناس بوسائل مادية وربما يكون ذلك على حساب منظومة القيم الاجتماعية. لم يكـن منطق الأمير ومن يشايعه مقنعا للكثيرين ولا سيما متعب الهذال؛ فالأمير يعزو السكن في هذه الأرض إلى حكمة صاحب الجلالة الذي_كما يرى - كان يدرك أهميـة هـذه الصحراء وما فيها من خيرات دفينة، فعندما سأله ابن الراشد:

ـ وهذا الذهب في وادي العيون يا طويل العمر؟

(كانت إجابته مثيرةً؛ لأنه جعل امتلاك الأرض هبة ومنة):

ـ في وادي العيون، وفي كل مكان من هذي الأرض المباركة، وصاحب الجلالة عندما انتزع هذي الأرض بحدّ السيف، وحارب الأعداء والكفّار، كان يعرف مـن أجـل أي شيء يحارب.

قال متعب الهذال ببرود وتحدٍّ:

ـ حنا اللي حاربنا بسيوفنا أخذنا هذي الأرض شبرا وراء شبر.

تضايق الأمير من هذا التعريض، وبتلك اللهجة قال متجاهلا كلام متعب الهذال:

ـ بعد ما منّ الله علينا بالنعمة لازم نشكره، لا أن نخلق المشاكل، ونقول: فلاني وتركاني.

وتغيرت لهجته وتابع:

ـ أنتم كبار وأعقل أهل وادي العيون وواجبكم أن تسهلوا عمل الأصدقاء وتخدموهم بعيونكم ـ وإن شاء الله ما تحل السنة الجديدة إلا والفلوس لآذانكم(112).

كانت هذه الكلمات كافية لتسكت أعند الرجال إلا متعب الهذال الذي بقي متمسكاً بموقفة لم يتزحزح عنه رغم كل الإغراءات. لكن غيره من الرجال ما كان منه إلا المباركة والموافقة على كل ما قاله الأمير فوجود كل هذه الإغراءات لم يبقِ للرجال إلا الخضوع والاستسلام لطلبات الأمير، قال ابن الراشد:

ـ حنا مع الحكومة،يا طويل العمر:إلي تختاره الحكومة فيه خيرة الله ونوافق عليه..فإذا كنتم ناوين تأمين الماء وحفر بيار جديدة وتوفرون للبدو والمسافرين والبساتين الماء، نسد عيونّا عن النصارى وما لنا شغل بهم ولا بينّا شي (113).

وظهرت مداخلات من رجال آخرين أمثال سالم المكتوم وعبيد السويلمي كلها تبارك وتؤيد كلام الأمير. وبتخصيص ابن الراشد بالحديث يلاحظ أنه منذ البداية كان من أنصار الأمريكان ومن أكبر المؤيدين لهم، والمساندين لهم رغم ما تخلل هذا الموقف من تراجع في بعض الأحيان في الدفاع عنهم، حيث لم يكن هذا التراجع لقناعات في نفس ابن الراشد إنما لأن الجو العام كان جوَّ رفضٍ واستنكار. فلم يكن بإمكانه الوقوف وحده في الساحة في وَجه قومه وأهله وهو في نظرهم كبيرهم وعاقلهم، وهو القدوة لهم. " وابن الراشد الذي بدأ مستعداً أول الأمر لأن يدافع عن هؤلاء، ويؤكد بطرق شتى أن الأمير أرسلهم، وأنهم أصدقاء جاءوا للمساعدة، لم يعد متحمساً للدفاع" (114).

بدا موقف ابن الراشد، في البداية، ضعيفاً في الدفاع عن هؤلاء فآثر السلامة وأخذ برأي الجميع. الجميع قالوا أن مكانهم ليس وادي العيون بل مكان آخر في الصحراء:

" بدا ابن الراشد محرجاً، إذ لا يستطيع أن يدافع عنهم كما فعل في البداية. كما لا يستطيع أن يتنكر لقيم الضيافة قال لينهي الموضوع: القول قولكم، الفلاة أطيب والله يلعنهم ويلعن ساعتهم والحمد لله خلصنا منهم" (115).

ولكن بعد زيارة الأمير وما جرى من حديث يملؤه الإغراء وبعد أن ثبت تأييد الحكومة لهؤلاء الغرباء وبعد أن رأى ابن الراشد كيف اقتنع من معه من رجال ـ باستثناء متعب ـ بضرورة وجود هؤلاء. بدأ ابن الراشد بالكشف الصريح عن موقفه منهم، فهو لم يكن ليهتم حقيقة بالأرض والمكان، لم يكن وادي العيون ليثير في نفس ابن الراشد ما يثيره في نفس متعب. كان ينتظر أن يجد تأييداً ممن حوله حتى يؤكد موقفه. وما أن وجد هذا التأييد من أمير المنطقة الذي لا يستطيع أحد أن يخالفه ويجادل فيما يقول، حتى شعر بالأمان من أن موقفه سليم لا يستطيع أحد الاعتراض عليه. لم يكن ابن الراشد منسلخاً عن أرضه فقط، إنما أجبر فيما بعد أهل الوادي على هذا الانسلاخ، لم يهمه أحد ولم يحسب لأهل الوادي أي حساب. لا بل على العكس كان أول المساندين والمؤيدين لفكرة ترحيل أهل الوادي عنه ولم يكن مؤيداً وحسب، بل عمل بكل جهدٍ لديه على تهجير أهل الوادي وخلعهم من أرضهم مع خلع كل شجرة في تلك الأرض.

لم يبق في الوادي إلا ابن الراشد وشعلان ابن متعب الهذال. شعلان الذي كان أكثر انسلاخاً من ابن الراشد عن كل ما يمت بصله للماضي: للأرض وللمكان. شعلان الذي لم يبق في الوادي ليدافع عنه أو ليحاول حمايته أو ليتشبث بآراء والده الذي رحل. لم يبق إلا ليقبض التعويض مقابل سكنه وأرضه، إلا ليأخذ ثمن هذا البيع الذي باعه، لم يَبْقَ إلا ليعمل في الشركة الجديدة شركة النفط، التي تأسست في وادي العيون. " انزرع شعلان في وادي العيون ليس كالنخيل الذي كان يملأ الوادي فيما مضى من الأيام، وإنما مثل الأعمدة الحديدية التي تغرس في كل مكان" (116). استقرّ شعلان في أرضه ليتخلى عنها لا ليدافع عنها، مكث فيها ليغير معالمها، ليغير النخيل بالأعمدة، ليغير التراب بالأسمنت، ليغير الأرض بالشركة.

لقد انغمس شعلان في الحياة الجديدة بشكل كبير، حتى أنه سارع لـتعلم اللغـة الإنجليزية ليستطيع التأقلم مع هذا الجديد دون عقبات، كان ممن تقبل تلـك الحـضارة بشكل كبير واستوعبها بكل ما فيها وانخرط فيها وكأن لم يكن له ماضٍ . كان شعلان مثل مصطفى سعيد في موسم الهجرة إلى الشمال لقد جعله الطيب صالح أنسانا لـيس فقط سريع التقبل لقيم الآخرين بل ويتشربها تشرباً كاملاً. لكن الفرق أن مصطفى سعيد هو الذي ذهب إلى الغرب وشعلان أتاه الغرب إلى عقر داره.
وجد مصطفى سعيد في الغرب مكاناً ملائماً لنزواته وطموحاته التي لـم يكـن أحـد ليحاسبه عليها في ذلك الغرب. أحب مصطفى سعيد الغرب رغم كل ما سببه له من ألم وضياع. كذلك شعلان فقد أحب عمله الجديد وموقعة الجديد رغم أن هذا الجديد جـاء على أنقاض ماضٍ ما كان يجب أن ينتهـيَ بهـذه الطريقـة. شـعلان نـسي كـل الماضي،نسي وادي العيون وأشجاره حتى متعب الهذال الوحيد الذي كان يربطه بوادي العيون مع الزمن تلاشى واختفى ليس فقط كوالد لشعلان إنما كاسم يرتبط باسمه، فاسمه لم يعد شعلان بن متعب الهذال، بل أصبح شعلان الشركة، استبدل شعلان باسم والـده اسم الشركة، وعندها لم تعد له أي صلة بالماضي. " حتى اسمه في المرحلة الجديـدة تغير، أصبح شعلان الشركة وفي أحيان أخرى شعلان الأميركاني، بدل شـعلان بـن متعب الهذال "(117).

وزيادة على ذلك فلم يكتف بهذا، بل قام بما قام به ابن الراشد الذي لم يكتـفِ بتخليه عن أبناء جلدته بل عمل على ترحيل أهل وادي العيون، كذلك فعل شـعلان إذ عمل على محاولة إعادة بعض من رحلوا، وكما قلت، لا ليتمسكوا بالأرض ويـدافعوا عنها، بل ليزيد من عدد الناس الذين باعوا وادي العيون وتخلوا عنه. وقد أثرت هـذه المسالك على نفسيته، ربما دونما شعور منه، وبدأ يتخيّل، فنتيجة لخيانة شعلان لوالـده وأرضه، بدأ يرى أباه في المعسكر، رآه أكثر من مرة وفي أكثـر مـن مكـان فـي المعسكر؛ الأمر الذي أصابه بالمرض أو ما يشبه المرض، وإنما جاء ذلك نتيجة شعور

خفي بالذنب حتى أصبح الوهم لديه حقيقة كما يقول منيف " إنه يتحدى الخوف ويتحدى الوهم، لأنه متأكد من وجود أبيه ولأنه يراه "(118).

يعلق يوسف ضمرة على هذا الذي أصاب شعلان فيقول: " تكتشف أن شعلان لم يكن مجنوناً أو مصاباً بأي مرض نفساني فإذا رجعنا إلى موقف متعب الهذال من الأمريكيين القادمين إلى وادي العيون، هذا الموقف الذي يعيه شعلان والآخرون بشكل جيد، وطمسه في أعماقه عند لجوئه إلى العمل في شركة الحفر الأمريكية في وادي العيون، لوجدنا أن العمل نفسه في الشركة المعادية أيقظ عند شعلان تلك القيمة الكامنة في أعماق شعلان ولا نقول في " اللاشعور " الذي لا نؤمن به بقدر إيماننا بالشعور الكامن، الذي ينشط بفعل مجموعة عوامل في ظروف نموذجية. وحين تستيقظ القيمة في أعماق شعلان تحدث الرؤية لوالده متعب حول المعسكر وفي المعسكر نفسه، لكن شعلان يعاود كلمات تلك القيمة حين يواصل العمل في الشركة بفضل الإغراءات الأمريكية، وهنا لا يعود متعب الهذال للظهور أمام شعلان" (119). إذن لم يظهر متعب الهذال لولده إلا لشعور كامن لديه بأنّ ما يقوم به لا يرضي أباه ولكن ذلك لم يدم طويلا؛ لأن هنالك ما هو أهم. المال والحياة إن العمل في تلك الشركة مضافاً إليه التفكير في المستقبل جعل شعلان يقاوم هذا الصراع الداخلي ويغلب المصلحة الشخصية على المصلحة العامة وأهمها مصلحة والده متعب الهذال.

هكذا رسم منيف صورة للأرض العربية قبل وبعد النفط. هكذا نقل لنا منيف شكل المجتمع العربي الروائي قبل ظهور النفط، كيف كان يعيش ؟ وكيف كانت حياته ؟ وهكذا بعد أن جاء النفط كيف أصبحت الحياة ؟ استطاع منيف أن يرينا أمثلة كثيرة على ردود الأفعال وكيف أنها انقسمت إلى ثلاثة أقسام: القسم الأول القسم الرافض ويمثله متعب الهذال، وقسم متقبل تماماً يمثله ابن الراشد وشعلان بن متعب الهذال. وقسم ثالث لا مع هؤلاء ولا مع هؤلاء، بل وقف متفرجاً ينتظر أن يرى إلى ماذا ستؤول إليه الأمور. ومع ذلك فإن هذا القسم لم يظل على حياديته فأصبح إما مع مؤيد أو مع معارض. وقد حاولت أن أوضح جميع ردود الأفعال من خلال الحديث عن شخصيات

اتخذت ردة أفعال واضحة تجاه ظهور النفط. فحاولت توضيح ردة فعل كل شخصيه من خلال حديث موجز عن كل شخصيه مع تحليل بسيط لسلوكها وطريقة تفكيرها. وهو ما توضحه الرواية لتستطيع الحكم على كل عمل ينتج عن هذه الشخصية. لقد جاء التركيز في هذا الموضوع على جزء " التيه "؛ وذلك لأن " التيه " هو الجزء الذي يمثل هـذا الموضوع بجلاء ووضوح. ففيه ظهر النفط وفيه كان ثمّة وصف للمنطقة قبل الـنفط وربما أن الاسم وحده دليل أكيد على عظم القضية التي يحملها هذا الجزء. فالتيه ليس ضياعاً فقط وليس فقداناً للطريق حسب، إنما قد يعني فقدان التفكير السليم. فالتائه قـد يسير في طريق معروف ولكنه لا يعي ذلك وربما العكس فلا يستطيع أن يقرر أيبقـى حيث هو أم يبقى مستمراً في سيره.

أما سائر النصوص الروائية في هذه الدراسة فلم تلتفـت إلـى ردود الأفعـال الأولى، وإنما استغرقت في تصوير الحياة العربية بعد تدفق النفط.

الفصل الثالث

الاغتراب والازدواجية

1.3- الاغتراب

تعدّدت الأدبيات التي تعالج مسألة الاغتراب مفهوما وأسبابا ومظاهر ونتائج، واختلطت في كثير من الدراسات المظاهر والنتائج بالأسباب، وغدا التمييز بين هذه المفردات بحاجة إلى التأني؛ فرأت بعض الدراسات أنّ الاغتراب يشير إلى العزلة التي يُعانيها الإنسان وهو في وطنه، ورأت أخرى أنه انعدام السيطرة واللاقدرة والتخارج من الذات، وذهبت بعض الدراسات إلى أنّ من أبرز أسباب الاغتراب انقلاب الموازين والمعايير، وأشارت إلى ما يرافق ذلك من مظاهر القلق، والأرق، والاكتئاب والشعور بعدم التوازن بوصفها نتائج لأسباب متعدّدة. وليس من شروط هذه الدراسة تتبّع هذه الظاهرة والتحديق في الأسباب والمظاهر والنتائج المتعلّقة بها إلا بمقدار ما يضيء جوانب النصوص الروائية قيد المناقشة.

تثير " قدح من نفط" هذه المسألة بشكل مبسّط، ويبدو الاغتراب بوضوح في بحث الإنسان عن إنسانيته، وسعيه للتصالح معها والانسجام في التعايش معها، وتشير الرواية إلى ضياع الإنسان واستلاب إنسانيته؛ نتيجة تدفق النفط، يقول أبو عرب ــ أحد شخصيات القصة ــ: " لقد تحولّنا إلى رقيق أبيض للذهب الأسود" (120)، ويتجلى الاغتراب أيضاً في الانفصال عن الواقع والآخر والذات، ومن ثم الإحساس بالوحدة والقلق وفقدان القيم والمبادئ: " ويركبه قلق الانتظار، وتمنى لو كان يقف إلى جانبه صديق أو رفيق أو أي أحد من السابلة، يقتل معه عقارب الوقت، يثرثران؛ حيث لم يصنع له اللعب بحبات مسبحته الفضية شيئا..." (121). تتوحد الشخصية وتشعر باغترابها عن كل ما يحيط بها، ويعكس ذلك حياة الضياع للفرد، وتتعدد وجوه تعامله

مع نفسه ومع الآخرين، حتى تتقزم ذاته وتضمحل ملامحها:" انعدمت الرؤية أمامه فلم يكد يعرف ماذا يريد وماذا ينبغي أن يفعل وصار يعاني من التوزع والشتات، ويعيش حالة هم فريدة" (122)، لم تعد الحياة ذات معنى يثير اهتمام الفرد، وكما أن الزمن يفتقر إلى المعنى، تفتقر الحياة إلى المعنى:" أقنعها بأنهما لا يخضعان إلى زمن ميكانيكي... فالوقت لا يعني شيئا هنا"(123). وهذا يعني أن أفعال الفرد لم تعد تقود إلى نتائج مفيدة تتناسب والجهد المبذول. ويعرض النص صورة قاتمة لعلاقة الإنسان بالإنسان، وعلاقته بالسلطة، ويلجأ إلى إدانة المجتمع بقواه المختلفة بوصفه سببا لما وصل إليه الفرد من حالات الاستلاب؛ إذ يلجأ الفرد إلى الاستسلام واليأس أكثر من ميله إلى الرفض والتمرّد: " فالإنسان في العالم الثالث مجرد دماء تلغ فيها القطط أو جثة تفتح شهية كلاب الصيد، وفي أحسن الأحوال سعدان مدجن يقوم بواجبه على حبل السيرك، هو فعلا كذلك ما دام المحقق يصف أخاه بأنه سافل" (124). ومن مظاهر الغربة فقدان الإنسان للانتماء؛ إذ يتحول إلى حيوان أو شيء، ويشعر بالدونية؛ لأنه غير قادر على التغيير أو إرضاء الذات، يرى" نفسه الآن مثل الصرصار الذي يزحف إلى آنية الطعام .... او مثل ثور" (125)، وهذه التشبيهات تظهر الإحساس بالدونية وعدم القدرة على الفعل، ونمو مشاعر الكبت وسلب الحرية في القول والعمل والمشاركة والتخطيط والمعارضة، فيرى " أن العالم مقسوم إلى قسمين قسم وراء القضبان حدائق الحيوانات والآخرون خلف قضبان السجن" (126).

أما رواية هاني الراهب فتعطي الأهمية الكبرى للقفز والطبقية والازدواجية، بيد أن البناء العام للنص يشي باغتراب الإنسان عن عصره، واكتهافه في أحيان كثيرة في قيم الماضي، وهو ما سيناقش في فقرة الازدواجية، وإذا تحدث النص عن هذه المسألة فإنه ــ كالعادة ــ يلجأ إلى التقريرية: " بعد مئات السنين يطلع علي النفط فتغرق فطرتي. أغترب عن عصري ولغتي" (127).

ولعل "مدن الملح" تسهم إلى حد كبير في بيان أسباب الاغتراب ومظاهره بأسلوب يعوّل على الوقفات والتحليل المطوّل للأماكن والشخصيات. وابتداء أقول إنّ

الإنسان اكتسب عند منيف سمات المكان الذي يعيش فيه، وهذه الصفات ميزتـــه عـــن الناس في أي مكان أخر. حيث نلاحظ أن الإنسان عنده يتماهى مع المكان ويتآلف معه وينطبع بسماته؛ لذا نجد أن أي تغير يطرأ على المكان ينعكس مباشرة علـــى صـــفات البشر في ذلك المكان؛ لأن التغير الذي يطرأ على البيئة الجغرافية تنعكس أثـــاره فـــي تحولات وتغيرات نفسية واجتماعية. كما أن ما يطرأ على وسائل استغلال موارد هذه البيئة من تطور يتجسد في إحداث تغيرات في الحياة الاجتماعية، وآية ذلـــك أن حيـــاة المجتمعات البدائية والمتأخرة والمتخلفة تشكل بظروف البيئة الطبيعية (128).

وحين تغيرت الأمكنة في روايات منيف انعكست آثار تغيرها على البشر الذين يعيشون فيها. وتجلت آثار التغير في طباع البشر ونفسياتهم وتفكيك عـــرى العلاقـــات الاجتماعية وتجريدها من مضمونها الأخلاقي واغتراب الإنسان عن مكانه ورغبته في تدميره.

إنه وادي العيون....

هكذا بدأ منيف التيه. وادي العيون تلك البقعة الخضراء الجميلة وسط الصحراء القاحلة، حتى ليقول منيف: " ليس بينها وبين ما حولها أية صلة " (129). هذا المكان لم يكن بمعزل عن البشر وحياتهم بل كان فيه سكان تعوّدوا عليه حتى أصبح لشدة جماله مألوفا لا يثير الكثير من التساؤلات. هؤلاء البشر كانت لهم خصوصية تميزهم عـــن ســـكان المناطق الأخرى وهذه الخصوصية استمدوها من خصوصية المكان الذي يعيشون فيه. فمكان مثل هذا لابد أن يمتاز أهله عن أهل المناطق الأخرى، وأهم ما يميزهم هو شدة ارتباطهم بالمكان وشدة تعلقهم به، وانتمائهم لمفرداته الطبيعية والاجتماعية، نقرأ فـــي الرواية:

" سوف يقولون إن هذا الوادي. بالنخيل الذي يملؤه وبالمياه التي تروي النـــاس الـــذين يعيشون حوله، والتي توقف المسافرين أياماً لكي يستريحوا ويتزودوا بما يحتاجون إليه ثم يواصلون رحيلهم بعد ذلك ربما إلى أماكن أفضل. إن هذا الوادي في هذا المكان من

الأرض لا غنى عنه ولو لم يكن موجوداً لما كان هنالك بشر أو حياة ولما كانت هناك طريق أيضاً ولما جاءت إليه القوافل"(130).

هكذا هو وادي العيون في نظر أهله وهذه هي خصوصيتهم التي استمدوها من خصوصية المكان الذي يعيشون فيه.

جاء النفط وحمل معه التغير وهذا التغير لم يكن تغيراً بسيطاً سطحياً حتى لا يؤثر في هؤلاء البشر، لا بل جاء التغير عميقاً وسريعاً. فقد تغيرت ملامح المكان بسرعة خيالية. فهذا المكان الهادئ الجميل المليء بالنخيل والينابيع سرعان ما تحول إلى أرض موحشة لا أثر للخضرة فيها، بل لا ترى فيها إلا أعمدة حديدية منغرسة في كل مكان. هذه الأعمدة حلت محل النخيل، وترى بدل ينابيع المياه الصافية براميل تحوى مياها قذرة لا تصلح للاستعمال البشرى، ثمّ بعد ذلك وشيئا شيئا أصبحت هذه المنطقة وغيرها من المناطق أسواقاً استهلاكية لكلّ جديد: بدا أن بعض البشر يتغيرون مع كل شيء جديد يرونه سواء أكان هذا الجديد في الناس الذين لم يتعودوا على رؤيتهم أم في تصرفات هؤلاء البشر الغرباء التي لم تكن متوقعة أو بالأصح مقبولة عند أهل البلاد، أم في الماديات الجديدة التي جاءت مع هؤلاء البشر من الآليات الضخمة التي استعان بها هؤلاء الأمريكيون لتحقيق غايتهم، أو التكنولوجيا الجديدة التي جاءت معهم من آلات بسيطة ووسائل نقل حديثة وأسلوب معيشة جديد ثمّ بعد ذلك وشيئا شيئا أصبحت هذه المنطقة وغيرها من المناطق أسواقاً استهلاكية لكلّ جديد: تدفقت المنتجات الأجنبية ومن كافة البلدان، فظهر المذياع، وشقّت طرق المواصلات، واستوردت السيارات ووسائل الاتصال الحديثة، وأنشئت المطابع وشاعت ظاهرة المكتبات، وتعددت مؤسسات الدولة؛ فانشئ الجيش، وأسست دائرة مخابرات، وأصبح للدولة سفاراتها في الخارج، وأرسلت الدول الأخرى مبعوثيها، وافتتحت السفارات والقنصليات في أرجاء السلطنة. ورافق ذلك تغيّر في البنية التحتية، فشيدّت المباني، وأنشئت الأبراج والفنادق، وتدفّق الوافدون من البلدان المجاورة والآسيوية والأوروبية، وتغيّرت طرق البناء، وبدأت مظاهر الترف والتبذّر تسيطر على حياة الأمراء وكبار التجار، ولا سيما

الوافدين الذي أسهم بعضهم في استعجال الاستيراد لتحقيق مآرب خاصّة، وأخصّ بالذكر هنا "الحكيم" صبحي المحملجي الذي تدخل في شؤون البلاد، وأصبح مستشارا للسلطان... ولعلّ هذه الدراسة ليست معنية برصد مفردات الحياة المادية، وإنما هي معنية بالحديث عمّا رافق ذلك من قيم متناقضة مع ما هو مستقرّ عند أبناء المجتمع الذي ترصده بعض الأعمال الروائية.

إنّ منيفا يلفت الانتباه إلى مسألتين على قدر كبير من الأهمية، الأولى: تتضح على شكل مفارقة بارزة مخالفة للمألوف الذي طالما أشار إليه منيف في أعمال أخرى كالنهايات والأشجار واغتيال مرزوق...؛ إذْ يبدو البناء التحتي(الاقتصاد ومفردات الحياة المادية...) مؤثراً على البناء الفوقي (الثقافة بما فيها من تعليم ومنظومة للقيم والعادات والتقاليد...)؛ أي أن منيفا وآخرين أبرزوا في أعمال أخرى النظرة الماركسية التي تنصبّ على أثر الاقتصاد والمادة في تغيير شكل القيم، وتلك أمور لم نر أنها تتحقق في المجتمعات النفطية، على وفق النصوص، إلا على نطاق ضيق. ويتّصل بهذه المسألة إشكالية أخرى تتجلى في عدم مواكبة الحياة الاجتماعية للجديد؛ ممّا أفضى إلى نتائج خطيرة تركت بصماتها على مشاعر الناس وأحاسيسهم، وقادت بالتالي إلى بروز بعض مظاهر الاغتراب والازدواجية... وهو ما سيناقش في الفقرات التالية. إنّ هذه التغيّرات جاءت بسرعة كبيرة لم تستطع النفس البشرية أن تستوعبها بسهولة وتتأقلم معها، ولم يأتِ هذا التغيّر بقدر متساوٍ عند جميع الناس، ولم يكن أسلوب التأثير واحداً عند الجميع؛ فمن هؤلاء الناس من تأقلم وتعايش وانطبع بالجديد كأنه أصل منه، ومنهم من لم يستطع التعايش مع هذا الجديد؛ فعاش بالمقابل حياة اغتراب وعزلة عن الناس، وقد ظهر ذلك من خلال سلوك هؤلاء الأفراد وطريقة تعاملهم مع الآخر وما جلبه معه.

كان من أهم وأبرز هؤلاء الأفراد متعب الهذال الذي ارتبط بأرضه والتحم بها حتى أصبح جزءاً منها. يقول د. محمد الشوابكة عن ارتباط الهذال بالأرض:

" يقف الوادي شاهداً على سعادة الهذال، كما يقف شاهداً على معاناته؛ ولهذا يستحيل ارتباطه به ارتباطا بالذات؛ لأن الأرض تحقق له ذاته، فهي مصدر سعادته

التي تتحقق على المستوى الحيوي من ممارسة الزراعة وتربية الماشية، وعلى المستوى الاجتماعي من ممارسة القيم المرتبطة بالأرض كالكرم والتضحية....الخ" (131).
إذن الأرض تحقق لمتعب الهذال ذاته، لذا نرى أُلفةً من نوع معين تشكلت بين متعب الهذال وبين الأرض. الأرض التي عاش عليها وألفها كما هي. الأرض بصفاتها التي يعرفها متعب الهذال نفسه. الأرض بصفات وادي العيون لا أرض أخرى. ويضيف الشوابكة في هذا المجال:
" لقد كشفت الرواية عن عمق انتماء الهذال وغيره من الشخصيات إلى الأرض بأشكال مباشرة وغير مباشرة. فالوادي في نظر الهذال مصدر الحياة، بل هو الحياة ذاتها. ومن هنا كانت علاقته به تسمو إلى مستوى الاتحاد والأسطورة. فبينه وبين الوادي علاقة خاصة عشق من نوع لا يتكرر "(132).

وعندما جاء النفط وقبْلَهُ الأمريكيون، وعندما بدأت ملامح هذه الأرض تأخذ بالتغير ومع تغير الأرض يتغير البشر، بدأ متعب الهذال بالتغير، فكلما تغير معلم من معالم الأرض تغير حال متعب وكأن المكان المستباح نفسه أصبح مغتربا عن قاطنه الأول؛ لأنه أصبح بحيازة من لا ينتمون إليه أصلاً(133). لم يعد الهذال كالسابق ولم يستطيع المقاومة، لم يجد نصيراً يساعده على منع هذا التغير، لذا بدأ ضعيفاً يائساً. إلى أن بدأ يميل إلى الغربة والاغتراب عن الناس، والاغتراب عن المكان الذي يعيش فيه. بدا ضعيفاً يائساً يميل إلى العزلة والوحدة، ولعلّ هذا عينُ ما يطلق عليه" فقدان السيطرة"؛ أي عدم شعور الفرد أن باستطاعته التأثير في المواقف الاجتماعية التي يتفاعل معها، ويعني أيضا عدم القدرة على التأثير في الحياة الإنسانية في خضمّ المستجدات، فيبدو غريبا عن مجتمعه وعن نفسه، فلا هو بالقادر على العودة إلى الماضي الذي بدأت تتغيّر ملامحه المادية، ولا هو بالقادر على التأقلم مع الجديد، لصعوبة استيعابه له من جهة، ولانشداده إلى الماضي وامتلائه بالقيم القديمة التي تراكمت عبر العصور من جهة أخرى، ولعلّ من أبرز دلالات الاغتراب التي أشار إليها الباحثون العزلة التي تعني عدم الاندماج الفكري مع المجتمع لعدم مواكبته له

حضاريا وفكريا(134)، وربّما تسمى هذه الحالة أيضا" التخارج من الذات"؛ إذْ لا يعود المرء قادراً على التعايش مع نفسه ويفقد المصالحة بينه وبين ذاته، وقد يشير الاغتراب عن النفس، أحياناً، إلى أن نشاطات الإنسان وممارساته لا تجلب له الرضى والسعادة، فكأنه فقد صلته بذاته الحقيقية؛ ولعلّ أقرب تحديد لهذا الضرب من ضروب الاغتراب عن النفس ـــ من منظور علم الاجتماع ـــ " أنه نمط من التجربة يرى الفرد نفسه فيــه كما لو كانت غريبة عنه" (135). إنّ مثل هذه الظروف تُفضي إلى نتائج مدمّرة لــدى الفرد: تبدأ تدريجيا بالتمرد الفردي، ثم الانعزال الذي يأتي بسبب الفشل، ثم الانزيـــاح عن المتواضع عليه بما يشبه" التيه"، ثم يتطور الأمر إلى التميز السلبي عن الآخرين، بحيث يصبح هو نفسه مصدر سخرية للآخرين. وعندما تغلق الأبواب كلّها في وجهه لا يغدو قادراً على المواجهة، فينكفئ على الذات، ثمّ شيئا شيئا يفقد التصالح مع ذاته إلى أن ينتهي الأمر به، في بعض الحالات، إلى الجنون وقد تقود هذه الحالات إلى الانتحار كما تشير بعض الدراسات.

متعب الهذّال لم يصل إلى هذه النتائج كلها، وإن كان غيره عانى منها بطريقة أو بأخرى، كشخصيات العتيبي والرشدان ومحمد عيد وكثير من الشخصيات الروائية التي تخضع للدراسة- بيد أن الهذّال سقط في النهايات في الاغتــراب؛ فــاعتزل النـــاس، وتوارى عن أصدقائه وأعدائه، واكتسب اختفاؤه، كما رأينا، بعداً أسطوريا، يقول السارد في رواية التيه:

"أحس فواز تلك اللحظة أن أباه انتهى. أنه سقط في بئر عميق لا قراره لها. وأنه لا يريد أن يرى بشراً أو يسمع صوتاً، حتى فرسه التي كانت في الظل إلى جانبه وبدت وديعة مستأنسه وكأنها لا تريد مفارقته أبداً، بدا وكأنه يضيق بها ولا يريدها أن تبقــى إلى جانبه، إذْ ما كاد فواز يلتقط البندقية ويهم بالمسير حتى قال له بحدة:

-اربط الدهماء تحت ذيك النخلة.

وأشار دون أن يلتفت إلى نخلة بعيدة، ثم انقلب على جنبه، كأنه يدخل في ملكوت النوم والغيبوبة وربما الموت (136).

وكل هذا إن دلّ على شيء فإنما يدل على شدة الاغتراب عند الرجل، فلم تعد الحياة كما كانت، ولم يعد يستطيع التعايش معها بنفس الطريقة السابقة. لذا نرى أنّ من أهم علائم الاغتراب العزلة عن الناس والابتعاد عنهم. فلم يعُدْ يطيق سماع أي صوت ولا رؤية أي شيء حتى لو كان فرسه المحببة إلى نفسه. يشتد شعور متعب بالغربة ويزداد حتى تضيق به الدنيا، حتى لم يعد يطيق أن يبقى في ذلك المكان الذي عاش فيه حياته كلها بكرامة وعزة، ذلك المكان الذي أحبه كما لم يحب مكاناً آخر في حياته.

كلما ازدادت مظاهر التغير وظهرت معالمها أكثر ازدادت رغبة متعب بترك المكان. فشدّة التحام متعب بالأرض لم تترك له مجالاً لمجاراة هذا التغير للأرض فهو لم يحس للحظة واحدة أن الأرض تبارك هذا التغير. لا بل العكس كان يسمع أنين الأشجار مع كل اجتثاث واقتلاع. وهو مثل هذه الأشجار يئن ويصرخ ولا من مجيب. لذا لم يكن أمامه إلا الرحيل والاختفاء عن هذا المكان. فالمكان تغير ومتعب تغير لكن تغيره لا يتماشى مع كل ما يجري. فهو لم يستطع أن يجاري الجديد وفي نفس الوقت لم يكن بمقدوره الاستمرار في القديم فقد كان اغترابه اغتراباً كاملاً عن الإنسان والمكان سواء بسواء. ويبدو أن الهذّال بدأ يشعر أن أعماله، وإن بدت في نظر الآخرين أسطورية، لم تعُدْ تُجدي نفعاً وأنه لم يجد المكافأة والقبول الاجتماعي، ويسمّي السيد علي شتا هذا النوع من الاغتراب بـ " الذاتي" (137).

ويرى بعض الباحثين في ظاهرة الاغتراب أن من أبرز مفاهيمه ومؤشّراته تحلّل المعايير أو ما أطلق عليه عالم الاجتماع الفرنسي إميل دوركايم مصطلح " الأنومي" ليشير إلى الموقف الذي تتفكك فيه المعايير الاجتماعية فلا تبدو مؤثرة ولا تؤدي وظيفتها قواعد لضبط سلوك الأفراد. وقد أوضح دوركايم في دراسته للأنومي أن المجتمع الذي وصل إلى تلك المرحلة يصبح مفتقراً إلى المعايير الاجتماعية المطلوبة لضبط سلوك الأفراد، أو أنّ معاييره التي كانت تتمتع باحترام أعضائه لم تعد تستأثر بذلك الاحترام الأمر الذي يفقدها سيطرتها على السلوك (138)، ويشير هذا المصطلح في بعض معانيه إلى الحالة التي" تغرق فيها القيم العامة في خضمّ الرغبات الخاصة

الباحثة عن الإشباع بأية وسيلة" (139). ويرتبط بهذا المفهوم ما يطرأ على المجتمع من تغيّرات حادّة تبرز من خلالها معايير جديدة مفاجئة لا يستطيع أفراد المجتمع الاستجابة لها، فتصبح هذه المعايير عاجزة عن السيطرة، أي أن انتقال الإنسان من عصر يتسم بالاستقرار وثبات القيم إلى عصر يتّسم بالاضطراب وتفكك المعايير يؤدي إلى حالة اغتراب شديدة لدى هذا الإنسان.

أما اغتراب محمد عيد ذلك الشاب المحب المليء بالمشاعر المرهفة نحو نادية قريبة الحكيم، ذلك الحب البريء الذي لم يجر له إلا التعب والعذاب ـ فمردّه إلى إخفاق عاطفي؛ إذْ تحول الفوارق الطبقية بين المرء وتحقيق طموحاته، وعندها تكتسب الأشياء والناس ألوانا سوداء، ويجد الإنسان نفسه منعزلا، أو يقوم هو باعتزال الآخرين ويتعمق اغترابه. ربما لم تظهر على هذه الشخصية، في البداية، أي علامة من علامات الاغتراب. ربما أنه في البداية استطاع التأقلم في الحياة الجديدة، الحياة النفطية وأنه استطاع الاستجابة لهذه الحضارة بشكل تام، لكن ما أن رُفض طلبه بالزواج من نادية وما أن رأى طريقه رد الحكيم عليه عندما طلب هذا الطلب حتى بدأت الأمور تتغير. لم تعد موران بكل ما فيها تسع محمداً، ولم يعد أهلها إلا خصوما له وعلى رأسهم الحكيم فلجأ إلى حران علّه يجد فيها سلوى تخرجه مما أحس به من غربة عن أرضه وأهله، لكن ما إن دخل حران حتى بدأ الماضي يتجسد أمام عينه، وبدأ يتذكر الشكل القديم للمدينة، عندها بدأ يشعر بالاختناق والضيق فرائحة المدينة كانت مزيجاً من البترول والبهارات والكبريت والصحراء والغبار وبقايا الأكل والأسماك الميتة وإطارات السيارات المحروقة إضافة إلى رائحة البشر. هذه الروائح مزيج من الماضي والحاضر مزيج من القديم والجديد لا تشكل إلا رائحة عفنة كريهة لا تطاق (140). وعلى الرغم من أن الجديد يطغى على القديم فإن رائحة البترول أقوى من رائحة بقايا الأسماك الميتة. وهي كلها تطغى على رائحة الصحراء.

وهذا كله لا يدل إلا على اغتراب تشكّل في نفس هذه الشخصية وكأن محمداً يحن للقديم ويحن لحران السابقة القديمة ودليل ذلك:

توجيه النقد لكل ما لا يتوافق مع أفكارها ومعتقداتهاــ وهي شخصيات ساهمت بشكل كبير في صياغة حياة ما قبل النفط:

"ولكن هذه المساهمات بدأت تتراجع لعدم قدرتها على التنافس مع الجديد، بـل لعدم قدرتها على التكيف مع مجتمع النفط والمال والسيارة والطائرة. والحقيقة أن هذه الشخصيات لم تكف لحظة عن النشاط، فقد حاولت المقاومة، وكانـت دائمـة النقـد والاحتجاج الخافت والمجهور؛ ذلك أنها مقتنعة بأن تراجعها لم يأت نتيجة عجز، وإنما جاء من كونها لم تُعْطَ الفرصة للتكيُّف مع الحاضر. إنها لم تخلق فقيرة أو أمية، بل إن الظروف المحيطة هي المسؤولة عن ذلك"(143).

كانت أحيانا تجاهر بآرائها ولا تأبه بما تقول، حتى وإن كانت تتحدث بهمـس وصوت منخفض لتأكدها أن النتائج لا تحمد عقباها. إنّ السرعة الهائلة التي استوردت فيها مفردات الحياة المادية أفضت بالضرورة إلى اقتحام حياة الناس دون إفساح المجال لفهم الجديد، وهذا هو عين ما يطلق عليه انقلاب المعايير. إن أي طفـرة مباغتـة أو انقلاب في الحياة الاقتصادية أو السياسية كالثورات المفاجئة يقود إلى عدم قدرة الفـرد على التكيف واستيعاب المستجدات، وهذا يؤدي عادة إلى تشتت الانتمـاءات وضـياع الذات.

لقد عاشت هذه الشخصيات حياة اغتراب وغربة ويتحدث محمد الشوابكة عن سبب هذه الغربة ويقول:

" إن الثورة النفطية جعلت الجيل المعايش لتفجرها معلقاً بين القديم والجديد، ينتمي بقيمه إلى مرحلة سابقة، ويعيش في زمن جديد يبدو محروماً من المشاركة فـي صـياغته. ويقف موقف المتفرج منه فيتحرق شوقاً إلى الماضي، وإذا كان هذا الوعي الفردي لـم يستطع في البداية أن يتمخض عن خلق إحساس جمعيّ، فإنه فيما بعد أخذ يمتدّ وينمـو حتى شمل نماذج كثيرة من الطبقة المسحوقة "(144).

نلاحظ في الأخدود أن الشخصيات التي يتركز عندها الاغتراب هي شخصيات مضطهدة في الأغلب الأعم، وأهم هذه الشخصيات شخصيتا صالح الرشدان و شمران

العتيبي. ويلاحظ أن هذه الطبقة لم تتبلور في الرواية بشكل واضح وكامل ولم تمتلك الوعي الصحيح لماهية التغيير، فكان حقدها يتجه نحو رموز الطبقة الوافدة، غير واعية إلى أن مصدر معاناتها ومصائبها يكمن في النظام القائم. كما أنها لم تستطع التكيف مع التغيرات التي أحدثتها الطفرة المالية في الحياة الاجتماعية. فظلت أسيرة عزلتها ومفاهيمها القديمة.

وينبغي الإشارة إلى أن اتساع الهوّة بين المنشود والمتاح يفضي إلى الاغتراب؛ فما تملكه بعض الشخصيات من قدرات كانت إلى عهد قريب، كما سنرى، تحقق أهدافها وتكوّن لها منزلة اجتماعية ـ لم يعد مع الطفرة النفطية يكفي لتلبية احتياجاتها، بل يقف التشبّث بهذه القدرات القديمة حجر عثرة أمام تطورها ونموها. والسؤال الذي تثيره الروايات، من بين كثير من الأسئلة، هو فيما يتعلق بهذه المسألة: كيف يتمكن الأمي المتشبث بعاداته وتقاليده أن يقترب من المنشود الذي أتى به الجديد؟ لم تتدرج بعض الشخصيات، كما هو الحال عند الجيل الجديد، في فهم المستورد والدخيل، لم تستطع إمكاناتها من تحقيق طموحاتها، فكيف يتعامل الأمي مع الكتاب والمذياع والسلاح ووسائل الحياة الجديدة... إن كل ذلك يؤدي إلى إخفاقات متتابعة تعمل على تدمير الإنسان ودفعه إلى السقوط. إن ما حدث بعد تفجر الثروة النفطية نقل الناس من حياة البداوة والبساطة إلى عصر التطور التكنولوجي والعلم والمعرفة. وقد استطاع بعض الناس من خلال أبنائهم وأحفادهم التأقلم مع الجديد، ولكن شريحة أخرى هوتْ في حالات من التأمل والانعزال وانعدام القدرة والتوازن؛ فجاء اغترابها حادًا وسقوطها مدويا. وإذا كان متعب الهذال ومفضي الجدعان أمثلة على "المغترب" في" التيه" فإن "الأخدود" تحفل بأمثلة كثيرة لعلّ أبرزها ـ كما رأينا ـ صالح الرشدان وشمران العتيبي من أبناء المنطقة، ونماذج مختلفة من الوافدين في " مدن الملح" أو في غيرها.

وُصف صالح الرشدان، الذي لقب بنذير حيث كان يثير الهرج والمرج في سوق الحلال الذي كان يعمل فيه، بأنه معتوه أو مخبول جاء ذلك من قبل السلطة الحاكمة والمنتفعين من أعوانها، ولم يقف الأمر عند هذا الحدّ وإنما شارك أفراد ينتمون

إلى شريحته الاجتماعية نفسها في الاستهزاء والتندّر، ولكنّ النصّ يثبت أنّ صالحا يمتلك وعيا عميقاً بأهمية القديم في ضمير الأمة وأن أبناء طبقته "لم يصلوا إلى الدرجة ذاتها من الوعي بالإحساس بالاستلاب" (145). وما لُقِّب صالح بهذه الألقاب إلا لغرابة القيم والأفكار التي يحملها ثم بعد ذلك لغرابة الأحكام التي يطلقها على الأغنياء لذا اعتقد الناس أو بالأصح أطلقوا عليه لقب المجدوب. فقد كانوا دائماً يرونه وهو يتحدث إلى الحيوانات وقد كان يتحدث إليها أكثر مما يرغب في أن يتحدث إلى البشر وكان دائماً يحث هذه الحيوانات أن تعاند أصحابها. إن الرشدان بدأ يفقد الصلة مع من حوله، بعد أن كان جزءا فاعلا في المجتمع.

يقول لأحد الحمير" لا تظل حمار طول عمرك يبس راسك. عاند. والبط وإذا رفست عوّر ولا تخف" (146). ولم يكن صالح ليخاف من رأي ألقاه أو كلمةٍ في قلبه يخرجها، قال معرضاً بالسلطان عندما بدأ يلبس الحرير والقصب " خذوا بالكم يا أهل السوق... ترى أول الرقص حنجلة " (147).

لم يكن أي تجديد يحصل يعجبه ويقنعه وأول هذا الجديد هو نقل سوق الحلال. فلم يعجب أحداً من أهل السوق؛ لكن صالحاً كان من أكثر الذين تمسكوا بالرفض فقد كان يأتي إلى السوق بعدته ليمارس عمله مع علمه بقرار نقل السوق. لكنه بعد مدة اضطر إلى ترك السوق لأن الآلات بدأت بهدم السوق. هذا لا يعني أن صالحا لم يحاول التكيف مع هذا الجديد؛ فعندما نقل السوق ولم يبق له عمل، حاول إيجاد عمل جديد وكان هذا العمل يتماشى مع موران الجديدة، حاول أن يعمل في تجارة السيارات لكن الناس تتغير مع تغير المكان " فبعد أن كان يمتدح على كل مهارته في العمل، أصبح الآن مكان سخرية للكثيرين. كانوا يقولون معبرين عن ذلك عند انقلاب الأمور " هالقلاب ياصالح بيي حذوة "، ويشيرون إلى سيارة كبيره خلفها سيارة صغيره: "ها لفرس ينراد له قص أضفر وحذو ياصالح لكن بشرط الصغيرة إلي وراها على البيعة وش قولك "(148).

ويظهر من خلال السياق الروائي بشكل عام أن المؤسسة السياسية القبلية لم تلتفت إلى أثر التغير السلبي في حياة الناس، بل كانت منشغلة بالاستهلاك والمحافظة على المكتسبات الشخصية، ويشير بعض الذين درسوا هذه الظاهرة إلى أن القصور المعرفي أو الوعي الثقافي سواء من جهة المغترب نفسه أو من جهة المجتمع بما في ذلك الطبقة الحاكمة تقود في النهاية إلى حالة اغتراب الفرد (149)، وكأن المؤسسة الحاكمة تسهم في الحيلولة بين الفرد وتحقيق ما يتناسب مع عقليته وقيمه من طموحات بوسائله التي يمتلك، وهنا يهيمن على الفرد شعور بأنه لا يستطيع التأثير في المواقف الاجتماعية، وأنه غير قادر على تحقيق الأهداف التي تتناسب مع قدراته. ويؤكد كثير من الباحثين أن هذه الحالة تشكل واحدا من مفاهيم الاغتراب بمعنى العجز وانعدام السيطرة والقدرة (150)، وكل هذه المظاهر نراها جلية في سلوك الرشدان وعلاقته مع الآخرين، فكلما ازداد وضع موران تطوراً وازداد تدفق النفط وتحسنت الأمور ازداد وضع صالح تراجعاً وسوءاً إلى أن قرر أن يقدم طلباً إلى السلطان لعله يعينه مسؤولا عن الخيل في القصر. لكن طلبه لا يجاب وهذا الرفض لطلبه لا يزيده إلا حقداً على وضعه وحاله، وحقدا على السلطان نفسه فبدأ ينقد السلطان علناً في المقهى والمسجد والسوق، ويجاهر بأن السلطان يغلق بابه في وجه الفقراء والمحتاجين ولا يتورع عن نقد الأغنياء الذين يبنون القصور وغيرهم لا يجد قطعة خبز.

لم تقف الأمور عند هذا الحد بل كانت الأمور تسير إلى الأسوأ فقد مات ابن صالح الرشدان. مات ابن سنتين ولم يجد صالح الرشدان من يقف بجانبه أو حتى يواسيه في مصيبته. بل على العكس أصبحت قصة صالح نسياً منسياً. لذلك فإذا كانت موران قد عرفت صالحا فيما مضى من أيام وأحبت شتائمه وطريقته في التعامل فإنها ما لبثت أن تجاهلته ثم نسيته(151). إنها العزلة المفروضة على الإنسان نتيجة ظروف موضوعية؛ ويشير مفهوم العزلة إلى الحالة التي يفقد فيها الأفراد الانتماء إلى المجتمع وتحلّ العلاقات الثانوية الرسمية النفعية محل العلاقات الشخصية الودية. وقد يصل الفرد إلى مرحلة يكون فيها محاطا بالآخرين، ولكن يتملكه في الوقت نفسه شعور بأنه

بعيد عنهم نفسيا واجتماعيا؛ وذلك لأنه يشعر بأن التواصل الاجتماعي ضعيف أو أنـه مبني على أسس نفعية(152). أما نتيجة هذا الحصار الشديد والعزلة القاتلـة فكانـت الاغتراب الشديد الذي يؤدي كما هو معروف إما إلى الجنون أو الانتحار، بدأ صـالح بعد الحصار والعزلة يكلم نفسه وحتى لا يخطئ أو يتردد أطلق أسماء يشير من خلالها إلى الأشياء التي أمامه وأخذ يخاطبها أو يتحدث إلى الجدران يشكوها همـه وعزلتـه وضيق ذات يده، ويصب جامّ غضبه على التغير السريع(153).

أما بالنسبة لشمران العتيبي فيقول الشوابكة عنه:

"حاول أن يدفن أحزانه متوارياً خلف الصمت. فشمران العتيبي مثل صالح شكل سوق الحلال حياته وهو لا يبتعد كثيراً عن صالح الرشدان فهو يتعاطف معه ويـؤمن بقضيته. نرى أنه يقف بجانبه في كثير من المواقف لأنه يؤمن باحتجاجـه. شـمران العتيبي أحد أفراد الطبقة المضطهدة مورس عليها الظلم وهو مثل صالح كلما زاد تدفق النفط زاد وضعه سوءاً وتراجعاً وفقراً...إن ثمة مسألتين هامتين تلحان على العتيبـي: الخيل والأرض وكلتاهما ترتبطان بقيم اجتماعيه واقتصادية موروثة وفقدانهما معاً يعني فصل الإنسان عن ماضيه: القيم والتراث. حاول العتيبي أن ينسى خيوله وسوق الحلال، فأخذ يحس بالانفصال عن كل ما حوله وأكثر من ذلك يحس بالعداء وخلافـاً للـسابق عندما كان يشعر بأنه جزء مما يحيط به. عنصر في دائرة كبيرة، عـضو فـي بنـاء شامل".(154)

هذا هو شمران العتيبي يتقوقع بين القديم والحديث فهو مثل صالح حاول التـأقلم مع الجديد لكنه لم يستطع. حاول أن يدخل في هذا الجديد لكنه مع كل محاولة إلى الأمام يعود خطوة إلى الوراء؛ لذا يجد أنه أصبح إنساناً آخر. غربة كاملة في وطن عاش فيه وترعرعت فيه آماله وطموحاته، وتكونت في أحضانه شخصيته، لقد أصبح يشعر كما تقول الرواية بالضياع وأن كل شيء دون جدوى " (155). كان يرى في الخيل حياته كانت محبته لها تفوق أي محبه وتعلقه بها يفوق تعلقه بأي شيء؛ لأن بنواصيها الخير إلى يوم القيامة. يقول شمران: إن الرسول هكذا قال: ويضيف " وإذا ضـاق صـدر

الإنسان أو ظلمه سلطان فعلى ظهورها يغير أهلاً وأحبابا وأوطاناً. وبعد قليل يهمس كأنه يتآمر " ويجى بهما واحد من الأحمرين: الدم أو الذهب. ويبتسم وهو يختم كلامه " وما يندرى يمكن يجي بها الاثنين جميع " (156). لذا فإن ضياعه ما اشتد إلا عندما أحرقت خيله وأرضه التي سرقت وأجبر على بيعهما للغريب عندها فقط ظهرت الغربة بعمق عند شمران العتيبي، فرغم أن وضع شمران المادي ليس مثل وضع صالح الرشدان فإنه وقع في حبائل اللاسيطرة، فصالح لم يجد مصدر رزق يقتات منه. لكن شمران كان ممن ازداد ماله " لكنه دون بركة ودون معنى"(157)، كان المال يأتي ويضيع دون استفادة تذكر منه.

كان شمران يحس بتغير الوضع وأكثر من ذلك يحس بتغير الناس " أخلاق الناس وأشكالهم تغيرت، كأنهم ليسوا الذين يعرفهم. حتى أولاده تغيروا، "قال في نفسه بلوعة: سبحان الدايم الذي لا يتحول ولا يتغير " (158). بعدها أصبح شمران مثل صالح لا يتورع عن قول كلمته " فقد دفعوه بالقوة لأن يشتم وأن يقول أي شيء. لم يكن يكتفي بالكلمات، إذ إضافة لها يستعمل يديه، وكثيراً ما كانت تلك الإشارات أبلغ دلالة وتعبيراً من الكلمات ".(159) إن كثرة الضغط تولد الانفجار وهذا ما حصل مع شمران العتيبي حرقوا خيله واغتصبوا أرضه، وفي النهاية أخذوا منه أعز ما عنده ؛ أولاده الذين ساروا على طريق والدهم في المجاهرة بكل ما هو خطأ من وجهة نظرهم.

هذه بعض النماذج الحية التي جسدت الغربة عند الإنسان ورأينا أهم أسباب الاغتراب عند هؤلاء هو عدم قدرتهم على التكيف مع الجديد، فالقديم يسيطر عليهم ويشدهم له بقوه. فهم عاشوا معظم وقتهم بالقديم، ومواصفات القديم تنطبق على الأشخاص الذين عاشوا فيه، فهو زمن بطيء بسيط يخلو من أي تعقيد. أما زمن النفط فهو زمن متسارع ومعقد، وجاء فجأة ودون أي تحضير لذا كان من الصعب التأقلم معه؛ مما ولد حالة الاغتراب عند من عاش الزمنين. يعلق الشوابكة على هذا الموضوع فيقول:

"إن رفض الحاضر والتغير ما هو إلا إعلان عن توقف الـوعي لـدى بعـض الشخصيات عند لحظه معينه في الماضي. فلم تستطع أن تخلق انسجاماً بـين الـزمن التاريخي والزمن النفسي أو العضوي أي الزمن الذي " يقاس بمدى نمونا وتفاعلنا مع الزمن التاريخي فالمهنة والخبرة جزء من الماضي، والماضـي عنـد هـؤلاء تمثلـه الصحراء والمدينة القديمة بينما تمثل مدينة النفط الحاضر ومع أن العلاقة بين الباديـة والمدينة لا تبدو واضحة على الصعيد المادي إذ لم تعد المدينة تتكئ في حياتها علـى البادية فإن العلاقة بينهما بقيت مستمرة من حيث القيم المعنوية، فبقي بعض الناس منشداً إلى البادية" (160).

أما نتائج الاغتراب التي تنعكس على أصحابه فهي إما الجنون كما حصل مـع صالح الرشدان أو الانتحار، وربما كانت نهاية محمد عيد هي أقـرب إلـى الانتحـار ونهاية متعب الهذال الاختفاء، وإما أن يجبر الإنسان على التعايش مع الحاضـر مـع استحضار بعض عناصر الماضي كما فعل شمران العتيبي الذي يحمل الراديو ليستمع إلى برنامج البادية. فهذا الراديو الحديث الجديد لا يستعمله شمران إلا ليشده ويـذكره بالماضي.

لعلّ مسألة الطفرة أو القفزة الناتجة عن تدفق النفط تبدو جلية ومباشرة، إلى حدٍّ كبير، في "رسمت خطّا في الرمال"؛ إذْ يقدم النص هذه المسألة بطريقة غرائبية يمتزج فيها الماضي البعيد بالماضي القريب والحاضر المعيش، ويكشف في الوقت نفسه عن التخلف والجهل وامتزاج القيم المتناقضة وضعف البنى السياسية؛ مما يقود إلى الشك بالقديم والجديد على حد سواء، ويفضي إلى التمزق السياسي والنفسي. إنّ ما يرصده هاني الراهب ـــ على ألسنة سارديه الذين خرجوا من أعماق التاريخ ـــ يلفت الانتباه إلى انقلاب الموازين وضعف المعايير في توجيه الناس وضبط سلوكهم؛ ففي مقطع واحد يُعرّي السارد الطفرة الهائلة التي مر بها المجتمع النفطي، فبعد أن تحدّث عن المفردات التكنولوجية الغربية المستهلكة التي تكشف عن مدى هامشية المجتمع العربي وسلبيته، تعود الذاكرة بالسارد إلى الماضي المتخلف، وقد توسل السارد في وصفه لهذه

النقلة المفاجئة بامتصاص النص القرآنيّ، مشيراً في الآن نفسه إلى أن النفط لم يغيّر في البنى الفكرية، بل قدّم لنا شخصيات متردّدة شاكة مفعمة بالتخوف من الآخر وادّعاء الازدراء به في آنٍ معاً. ويحمل السارد على الوافد الذي يفتقر إلى الكرامة عندما يخدم هؤلاء الناس بكل شيء على حساب كرامته وآدميّته:

"مفتش الجمارك. حارس المكس. أمضى قرونا وهو يفترش الرمال، يمشي على الرمال، يقتل ويضاجع ويبول... على الرمال، فوقه السماء الرمادية وجحافل النجوم وجحافل الغبار. وذات ضحى قال له وجه مضفور: " تعال كن حارسا للمكس"، فكان خلال ستة أيام علموه ما يكفي من الانكليزية لتفتيش التأشيرات والحقائب، وفي اليوم السابع استوى على منصة إسمنتية وصار ربّ الحدود. علموه أن يعبأ بالتفاصيل. إنه متأطّر داخل لباسه الرسمي. عيناه الباردتان الحانقتان تزدريان الخليط النافر من تفاصيل الوجوه ومحتويات الحقائب. كلها مجهول بالنسبة له. كلها ريبة واحتمالات شر وعهر... لو كان في هؤلاء الناس كرامة لما أقبلت من أقاصي المعمورة لتخدمه بعلمها ولحم عقولها وأثدائها "(161).

تنحو " رسمت خطّا في الرمال" منحىً سياسيا إلى حدّ كبير، وتقدّم الآفاق الاجتماعية للكشف عن تفكك البنى السياسية، وتغوص في أعماق التاريخ، ثم تنهض فجأة لتحلل فجائع الحاضر، تسخر من الانتقال السريع من العصور القديمة إلى العصر الحديث؛ إذْ يتقدم العالم ويبقى العربي هائما في سبات عميق، ويستثمر النفط في التطوير عند الآخرين، ويتحول عند أصحابه إلى أداة لتوفير المتعة. يستيقظ العربي من غفوته الطويلة ليجد أنه ينام على بحر من النفط... تتحدّث شهرزاد ــ وهي واحدة من الساردين للحكاية ــ عن غيبوبة شهريار التي استمرت مئات السنين، وتشير إلى أنه استيقظ بعد نهاية الحرب العالمية الثانية ليسأل عن الخليفة القائم على شؤون المسلمين، فتخبره أن الزمان تغير، بيد أنه نام عند نهاية بني العباس وأفاق ليسمع بمفردات غريبة كالطباعة والصحافة ... وينبئ شهريار أنه اكتهف في جوف الأرض مع نفر من الجن وأنه رأى هناك كتابا أنزله الله في جوف هذه الرمال، إنه النفط الذي سيعمل،

كما يرى، على انتشال أمة الإسلام من دياجير الظلام. لقد سمع مناديا ينادي:" انهض يا شهريار، إنّ أمتك تعيش بانتظار أن تنشئ حضارة بالبترودولار" (162). لعل الغربة تكون ثقيلة ومؤذية على من يستيقظ فيرى عصرا جديدا مختلفا عما كان يعيش فيه، هل يستطيع عقله أن يستوعب العلم والتكنولوجيا وهو محمّل بأيديولوجيا تعود إلى مئات السنين؟ هل سيتعامل مع الجديد بفكره القديم وتكون السلطة عندئذٍ هاجسه الأول والأخير، يقول شهريار مخاطبا شهرزاد:" فافهمي خطورة هذا الخلق يا امرأة ولتعرفي أن أمة المسلمين لن يغلبها غالب بإذن الله، وتاريخها كله فيه حادثان مهمان هما نزول الرسالة من السماء وصعود النفط من الصحراء. ولكن لازم أصير أنا الخليفة" (163)، وزيادة على هذا النمط من التفكير في التسلط الذي يلبي شهوة القتل حيث السياف يقطّع الرؤوس، فإن شهريار لا يزال مسكونا بهاجس المرأة وخيانتها، وكأن الإنسان العربي لا يعرف إلا الحكم والمرأة/ الرجال والنساء، ومما يجدر ذكره هنا أن شهريار بعد صحوته عمل "رئيسا للمطوّعين" لدى الخليفة. تقول شهرزاد:

"كل يوم يركب الكاديلاك ويقودها بسرعة مائة وخمسين قبل أن يتغير عقله بعد اليقظة كي يقدم للخليفة المطالب الثلاثة التي لا تنازل عنها: تحرير النفط، تحرير ثالث الحرمين الشريفين، إقامة بيت مال المسلمين، لكنه وهو يجوب الشوارع، يشاهد النساء السافرات المختلطات بالرجال في الأسواق والدكاكين والجامعة، فيشرئب فيه شهريار القديم الذي خانته زوجته الأولى مع عبد أسود اسمه مسعود، الذي تزوج ألف مرة وضرب أعناق ألف عروس... لا يمكن أن يتصور [شهريار] كيف ستصلح أحوال المسلمين والعرب ما دامت النساء سافرات والرجال وراءهن في الشوارع حتى أثناء وقت الصلاة، وعندما يصل إلى الخليفة يجد نفسه ممدود اليد بتقرير عن شغل المطوّعين في البلاد، وليس بالمطالب الثلاثة" (164).

ولا يعدو المجتمع الروائي عند هاني الراهب أن يكون مجتمعا بدائيا على الرغم من التغير المادي الهائل؛ ويعود ذلك إلى أن هذا التغير جاء مفاجئا؛ ولأنه كذلك فقد كان العربي مستسلما خاضعا للآخر سياسيا واقتصاديا، ولا يبدو أن الغربي معنيّ بتطوير

البناء الفكري، بل ربما كان يشجع على استقرار القيم وثبات الأفكار. وبالأسلوب المباشر الذي اعتدناه عند الراهب يروي النص:

"نفيطية. بلاد الرمال والسيارات والمصارف ومكيفات الهواء والرؤوس الملثّمة. قال د.ربيع أحمد:" نحن شعب أنشأه الإنجليز، قال:" بضعة آلاف تلملموا من عشائر الصحراء. رسم إنجليزي حولهم خطا بقلم رصاص. وقال: كونوا نفيطية جيم. يتكلم المثقفون عن صدمة الحداثة؛ أنا أتكلم عن صدمة القدم: عن بدو زادهم النفط بداوة" (165).

ويبدو واضحا أن الراهب يوظف تقنيات "ألف ليلة وليلة"، إذْ يهيمن غير المألوف والخارق وتطل علينا العفاريت وأنواع الجن الذي تنقل الإنسان من مكان إلى آخر ومن حال إلى حال بطرفة عين، وكل هذا الإلحاح يأتي مؤكدا للطفرة والقفز اللذين يعبران عن حالة مرضية وليست صحية، يعبران عن خيبة العربي في عصر العلم والتنوير وغربته عنه؛ ولا ينسى ــ كالعادة ــ أن ينتقد الأوضاع السياسية؛ إذْ توظف التكنولوجيا في خدمة الحاكم وحمايته، بل تصبح حراسة الحاكم" عِلْماً":

"ذاكم هو الخليفة في لحظة غافلة ينتفض الأعرابي في دمه. يطبق الكتاب ويخرج من ذلك الباب. يفتح كتاب النفط. يدير ظهره للقرن السابع ويمضي نحو القرن العشرين. يثب عن ظهر الهجين ويجلس وراء مقعد الليموزين. عيناه تقران بصفوف المطوعين وأسراب العذارى. وهو وحده لديه التكنولوجيا والحرسلوجيا. فليعد إذن إلى القرن الثامن.

الشجرة الوحيدة التي تموت خارج الصحراء: الأعرابي. لا يستطيع الخليفة أن يمكث طويلا في القرن العشرين. هو والماء ضدّان. هو والتراب ضدّان. لولا أن انقطع المطر ومات الشجر لما تكون الأعرابي ولا النفط.

ويستغرق الكاتب في تحليل البناء السياسي الذي بقي ثابتا لم يتغير وكأنه خرج من عصور سحيقة على التو، ويشير إلى أن العربي أصبح مجال سخرية للغرب؛ لأنه يفتقر إلى امتلاك الإرادة والعقل العلمي، ويعيش في زمن غير زمنه. يُحيّدُ الحاكم، وينسى

هموم الأمة وينشغل باللذات التي يوفرها له الغرب، كما ينشغل بالتآمر على مصير الأمة؛ ففي حين يطلب من الحاكم ــ ممثل الإسلام ــ أن يحرر "ثالث الحرمين الشريفين"، يردّ بأنه يدفع سبعة ملايين لتحرير أفغانستان من الشيوعية، ويرى أن المحافظة على القدس من واجب الأمريكيين، وحتى يتمكن من السيطرة يتكئ على سياسة إشغال الناس بالدين، وتأتي المفارقة عندما يقول:" فكس(أمريكيا) يجعل إسرائيل تهدد العرب الذين يهددوننا. يجعلها تكفينا شرّهم فنتربع على عروشنا. لولا إسرائيل لهاجمونا نحن" (166).

2.3 -الازدواجية:

الازدواجية تقترب من الاغتراب؛ فتكون إحدى نتائجه. فالاغتراب ينجم ــ كما رأينا ــ عن عدم القدرة على دمج الماضي بالحاضر. و الازدواجية تعني اقتران القيم المعنوية القديمة ومفردات الحضارة الحديثة/ الجمع بين الماضي والحاضر/ ادّعاء المثل النبيلة والتدين واختراقها سلوكا/ الهوة الثقافية الناجمة عن عدم التزامن بين الماديات والميتافيزيائيات/ التجاور المعادي... أن يعيش الإنسان مع الماضي والحاضر ويدمجهما دون أن يمتزجا، فهو تارة للقديم والمبادئ والأصالة، وتارة أخرى كأنه ابن الجديد وولد فيه، مما يخلق نوعا من التناقض، إذْ يتجاور السلبي والإيجابي وتعيش المفردات المفعمة بالمفارقات جنبا إلى جنب. ولعلّ ما احتل مساحة لا بأس بها في النصوص التي بين أيدينا، فيما يتعلق بهذه المسألة، الأمكنة وأنماط الحياة ومجمل الأفكار. إنّ التطور الذي أصاب المنطقة لم يأت ــ كما تصوّره النصوص ــ تدريجيا يتوافق مع قوانين الطبيعة، وإنما كانت المقدمات سريعة، فجاءت النتائج مؤذية لكثير من الناس؛ إن التقدم المادي الذي استهلكه العربي لم يأت نتيجة جهده هو وإنما جاء نتيجة خبرات متراكمة مرّ بها الغرب. الغربي ينتج والعربي يلتقط دون وعي أو فهم، ولا يلاحظ المتلقي أي توازٍ بين المادة والثقافة، فجاء التغير هشا سطحيا، فافتقرت الأماكن كما افتقرت المنتجات إلى الأصالة.

تشير " قدح من نفط" إلى شيوع النمط الاستهلاكي في الحياة العربية على جميع المستويات، بطريقة مثيرة؛ إذْ تجد في المدن كل شيء ولا شيء عربي، وحتى في طريقة البناء تجد كل طراز أجنبي حتى يكاد العربي يضيع فيها؛ فتفتقر المدن إلى هويتها. تتحدث الرواية عن الاستهلاك وتذكر أن بطل الرواية ظافر الأحمد جلب معه سجاير، ولكنها لم تعجب صاحب اللباس الوطني! قال المواطن: " لكن سجاير المالبورو... أعظم وأفخم نكهة... أخرج ولاعة فاخرة، فيما غرق ظافر الأحمد في تأمل عميق... السيجارة بريطانية، الحذاء إسباني، الولاعة يابانية... العقال... الدشداشة... يؤرقه هذا الخليط غير المتجانس" (167). إن هذا الخليط دلالة ازدواج بين تجاور الوعي وغيابه. وتؤكد الرواية غياب الوعي العربي الذي أصبح مأخوذا بالدعايات التي تقدمها دور الإذاعة للمنتجات الغربية أكثر من التفكير في المساهمة في صياغة الحياة المعاصرة" ريجال بيكون، جبنة أبو الولد الأصلية... جربوا شراب الكولا وسترن..."، ويعلق السارد على ذلك بما لا يحتاج إلى تأويل:" نقتني في أدمغتنا مبادئ العصر الحديث، ثم نبقيها محبوسة في عقولنا، ونستوحي لأفعالنا وصلاتنا الاجتماعية والإنسانية مبادئ أخرى نقيض المبادئ الأولى" (168).

وقبل هذه الرواية كانت "الأخدود" قد قدمت هذا المعنى بطريقة تكاد تكون متشابهة: فالناظر إلى موران ـ مثلاً ـ لا يرى فيها خصوصية أو تميّزاً يجعلها تدوم وتستمر كالمدن العريقة؛ فبناء موران" ضمن ألف طراز شبيهة ببعض الطيور الإفريقية: مزركشة جدا، لكن دون جمال، الطراز القديم إلى جانب الطراز الحديث، اللبن إلى جانب الزجاج العاكس... والأندلسي إلى جانب الياباني"، وزيادة على ذلك فإن هذه المدينة بُنيتْ لأهداف معينة، ولكنها" ولدت في غير مكانها، وغير زمانها... حتى الذين بنوها سوف يتخلون عنها؛ لأنهم لم يتصوروها بهذا القبح، وهذا العداء، ماذا يفعلون بناطحات السحاب الزجاجية إذا أصبحوا عاجزين عن تأمين التبريد لها؟" والمدينة مستوردة لم يعمرها أهلها، وبمجرد تخلي الآخرين عن حمايتها سيتخلى عنها ساكنوها، وقد تجاوز هذا التشويه المدينة إلى إنسانها ، فأصبح الإنسان" طرازا مشوها

من المخلوقات" (169). إن ما حدث لم يصب الأعماق وإنما اقتصر على القشرة الخارجية؛ فتجاور التقدم التكنولوجي وغياب التفكير العلمي التطبيقي في بيئة واحدة!

وتشير " رسمت خطا في الرمال" إلى أن المفردات المادية والمعاني تتجاور على الرغم مما فيها من تناقض ونشاز ومفارقة؛ إذْ يعجّ المكان بآخر ما أنتجته الحياة الغربية العلمانية والعلمية، مفردات متعددة تجعل المقارنة بينها وبين قيم المجتمع النفطي أمراً يسيراً؛ فما تلمسه بيدك وتراه بعينك، أي، تدركه بحواسك يواجه بكلّ ما هو غيبي. ولا يقف التجاور عند هذا الحدّ وإنما يتجاوزه إلى المفردات الدنيوية. تشكل كلمات مثل: "الحشر"، "الدعوات"، القرآن، الحديث، القيامة..مع الأسهم والإعلانات الخارجة عن المألوف، والسفر والاختلاط- ازدواجية جلية. عندما يقوم مفتش الجمارك – مثلا- بتفتيش حقائب المسافرين، يكشف عن أن المستورد والتكنولوجي لم يواكب برقي في القيم والسلوك الذي ينبغي أن يسمو إلى مستوى التفكير العلمي والتحضر، وينشغل المفتش بأمور يبديها النص تافهة متخلفة (170).

ولعلّ أغرب مظاهر الازدواجية التي تعرضها رواية الراهب هي إعلان بعض الناس، ولا سيما الحكام، عن حرصهم على حماية الدين وتباكيهم على انتهاك حرماته، في الوقت الذي يقومون هم أنفسهم بانتهاك هذه الحرمات: سيطرة التبذّر، أكل أموال الناس بالحرام، الشذوذ، تعدد الجواري، شرب الخمرة... مما يعد مخالفا للدين. العربي الخارج من التاريخ، كما قلنا، استطاع أن يستخدم الجديد وأن يزاوج بين الماضي والحاضر، ولكنها مزاوجة مفعمة بالدجل والكذب والتزييف والادّعاء، وخاصة عندما يكون الفعل مجانبا للقول. تقول شهرزاد عن شهريار:

"لقد نسي العفاريت إلى غير ذكرى. وترك تحرير النفط إلى غير رجعى. وصمت عن ثالث الحرمين الشريفين إلى غير كلمة. وصار بيت التمويل الإسلامي[الذي كان يحاربه ويعده ربا مضاعفا] عنده بديلا لبيت مال المسلمين.صار ديدنه حجاب المرأة وصلاة الرجل وتشريد العلمانيين، كلما اقترب موعد الصلاة هبّ هو وجحافل مطوعيه فامتطوا سياراتهم الأمريكية، واندفعوا كالرياح الشرقية.. كغبار الخماسين...

هو بالذات يجب أن يخلي شوارع المدينة من المتسكعين، ويرسلهم إما إلى السجون وإما إلى المساجد. هو بنفسه لا نشوة إلا اغتصاب الخادمات الآسيويات يمكـن أن تعـادل التقاطه متسكعا... "(171).

وهذا المغتصب يقول لزوجته أو لعشيقته عندما دخلت الكفيتيريا لتناول فطورا إنجليزيا: "تطلبين طعاما فيه لحم خنزير! أنت المرأة المسلمة وفي حضوري أنا" ثم تمالك ذهوله وأضاف:" غدا تصدر الجرائد في طول البلاد وعرضها وتعلن كيف يدوس المـسلمون على إسلامهم في أوروبا". ونهض فجرجرني من يدي إلى جناحي، وهرول إلى دهليز فندقه. يا مليكي يا شهريار، إذا كنت أقبل أن يضاجعني خنزير؛ أفلا أشتهي أن أمضغ بعض لحمه"؟ (172).

وتروي شهرزاد أن شهريار ضغط على جهاز صغير معلق على رقبته وأدخلها في سرداب عجيب مدفون في الأرض ومطلّ على الفضاء والخليفة يشدّ على زندها ويقول:" كيف أوائم بين كتّاب محمد وكتاب النفط؟ أنا أقصد هذه الفلوات عند الغسق... وأناجيه طالبا حلاّ. لكنه فعلا لا يردّ. يريدنا أن نعرف ما يريد دون أن يتكلم. مثلما كان شأنه دائما(...) التفت حوله وغمغم:" أليس لدينا هنا ويسكي..." (173) ، وفي مواقع من الرواية يتزامن التعامل مع المفردات المادية مع الاحتفاظ بقيم التسلط والقتل مع تطبيق حكم الشرع على الفقراء والمضطهدين (174). ومن أشكال الازدواجية التي يرصدها الراهب سلوك الأكاديميين والمتعلمين؛ إذ نرى فيها تناقضا جليا بين الروح العلمية ومتطلبات الدين من جهة، والتزوير والتدليس من جهة أخرى؛ ففي الوقت الذي ينتظر أن يعمل النفط فيه على رقي الناس وحثهم على العمل والصدق، نجد الحياة العلمية قائمة على التزوير، فأساتذة الجامعات ـــ كما ترى شخصية عربي ـــ يترقون على الأبحاث التي يكتبها الوافدون. ومن كان يقوم بذلك ويظن أنه ارتكب خطيئة " يكتشف لسعادته البالغة ـــ أن هناك جماعة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر تمارس هذا العمل الخيري في الجامعة كلها... ومنذ ذلك الوقت لم يغب عن صلاة واحدة في المسجد" (175) ويميل النص إلى المباشرة فيجعل الحياة في مجتمع النفط "خلطة

عجيبة"، يقول د. ربيع أحمد:" ...ولكن صدقني مستحيل، مستحيل أن تعيش وأنت في القرن العشرين مع هذه الخلطة العجيبة من الجاهلية والقرن العاشر وعصور المماليك، والنظام القبلي العائلي في كيان سياسي لديه جامعة وتلفزيون وبرلمان" (176). و لعله من قبيل السخرية المرّة أن نجد من يعجب بالجمل، ولكنه فوجئ بالجمل يلتقم " كتابا عنوانه البنيوية"؛ إن العلم يسخّر ها هنا في خدمة الجِمال!! (177).

ومن الواضح أن العربي استطاع أن يستخدم ويستهلك التكنولوجيا، ولكنه لم يفهم شيئا من كل ذلك، وتصرح الرواية بأن العربي لا يزال مستهلكا هامشيا يصر على التمتع بالتكنولوجيا وهو مسكون بمفاهيم قديمة تعدها الرواية بالية متخلفة (178).

أما الشخصيات الممثلة لذلك في" مدن الملح" فكثيرة، لعلّ أبرزها شخصية ابن الراشد في "التيه": ففي حين نرى أنها شخصية دينية همّها إقامة شرع الله والالتزام بما أمر، نرى أنها من أوائل الذين جاروا وظلموا بعد ظهور النفط. كان ابن الراشد قبل ظهور النفط مثال الشخصية الدينية الأنموذج، فعندما جاء الأغراب لأول مرة سُمع وهو يقول لواحد منهم: قل لا إله إلا الله محمد رسول الله. وقال الرجل وراءه: لا إله إلا الله محمد رسول الله. لكنه مع ذلك بدا شخصاً مختلفاً منذ أن وصل هؤلاء الأجانب وبالغ بالكرم والعناية،... فقد كان في دخيلته يحس أن مغانم كبيره يمكن أن تجنى من هؤلاء. يهمه أن يسلموا وينطقوا بالشهادة لكنه بنفس الوقت يهتم بما سيجنيه من وراء هؤلاء الأغراب. وحين ذهبوا إلى الأمير بغرض أن يشكوا من سلوك هؤلاء الغرباء ومن تصرفاتهم التي تُخِلُّ بالشرع وبالدين كان هذا هو الغرض الرئيسي لذهابه إلى الأمير لكننا سرعان ما نرى تغير الحال مع كثرة الإغراء فكانت النهاية أن قال ـ كما رأينا في فصل سابق ـ: "حنا مع الحكومة، يا طويل العمر. اللي تختاره الحكومة فيه خيرة الله. نوافق عليه".

عندما بدأ النفط بالتدفق تغيرت نفسية ابن الراشد كلياً أصبح همه التعاون مع الأمريكان والحرص على راحتهم وتنفيذ كل ما فيه مصلحتهم حتى يعم الخير وتصل المصلحة له. لكنه رغم هذا نجده دائماً يجاهر بأن مصلحة أهل وطنه هي همه الأول

وهي غرضه الرئيسي فهو يبحث عن مصلحة أهل موران. كان أول من ساعد الأمريكان على اقتلاع أهل موران من أرضهم وفي نفس اللحظة وقف معلناً أن كل ما يحصل لهم هو خير لهم لا عليهم. عندما مات ابن الراشد وهو نموذج تام قدمه الروائي بإقناع ومنطقية، ربط الناس بين وفاته وازدواجيته؛ فقد عمل ابن الراشد مع الأجنبي لحظة دخوله الصحراء العربية واستطاع أن يبني علاقة مع المتنفذين؛ فتنازل عن كثير من قيمه القديمة لكي يظفر بما يقدمه النفط، لكنه مع ذلك ظل يدعي حرصه على قيم الخير والدين. وقد قدم عبد الله الزامل إحدى شخصيات التيه تحليلاً لشخصية ابن الراشد بقوله " ابن الراشد كلب ابن كلب:طماع، يحب نفسه. لا يحلّل ولا يحرّم.لكنه مسلم ابن عرب يعرف الصحيح والغلط وهذا اللي هبله وهذا اللي قتله " (179). هكذا ظهرت ازدواجية ابن الراشد. كان شخصاً مسلماً ملتزماً متشرباً لأحكام الدين وأحد أهم الشخصيات التي يعتمد عليها سكان موران في الخلافات الدينية. لكنه في نفس الوقت لديه نفس طماعة لا ترفض الجديد مهما كان إذا كان فيه مصلحة لها، نفس لا يمكن إيقاف طموحها عند حد معين،حتى لو تجاوز هذا الدين والعرف والعادة.

وثمة نموذج آخر يدل على الازدواجية وهو شخصية الحكيم الشامي صبحي المحملجي. كان يدّعي التقوى والدين والحرص على إقامة دين الله، ولكنه، كما نرى، جعل همه الأول جمع المال. كان الحكيم يرى في أهل موران مثالاً للتخلف وهم أقرب إلى الحيوانات منهم إلى البشر " هنا في موران، يمكن أن يجد الإنسان المال ويمكن أن يعيش لكن الناس هنا نوع آخر. إنهم أقرب ما يكونون إلى حيوانات الصحراء: مملؤون بالحراشف والقسوة والخشونة. جلودهم سميكة وأعماقهم بعيدة لا تدرك " (180). ورغم هذه النظرة لهم إلا أن الحكيم يحاول وبكل جهد لديه أن يكون مثلهم أن يقلدهم في لبسهم وكلامهم ويحاول أن يجاري عاداتهم وتقاليدهم، وما ذاك إلا لأن هذه البلاد تمتلئ بالخيرات والأموال. " لقد اقترح الحكيم إنشاء جهاز الأمن والسلامة والحماية؛ لحماية الدولة مما يشاع من أفكار خارج حدودها، خاصة الأفكار الملحدة التي تريد الوصول إلى "بلادنا المقدسة لكي تقضي علينا وعلى ديننا" (181). اتخذ الحكيم الدين مطية

توصل بها إلى عامة الناس غير أن كثيراً ممن اتصلوا به فهموا مقاصده، وقد عبر شمران العتيبي عن ذلك في غير موضع بقوله: " ما هي كل صلاة صلاة ياجماعة الخير. وهذه الصلاة ما هي لله " (182) ، مشيراً بذلك إلى الحكيم الذي فعل ذلك ليتمكن من نقل سوق الخميس الذي ارتبط به العتيبي ارتباطاً روحياً إلى مكان بعيد. وقدم لنا سعد الأسطة وهو ممن اتصلوا بالحكيم صورة ساخرة لشخصية الحكيم، ففضلاً عن تعويله على الخداع والتآمر يبدو الحكيم مادياً همه الوحيد من المجيء إلى صحراء النفط جمع المال، "ليس هناك قوة على وجه الأرض تقنعني أن الرجل بريء هو بالعكس نصاب ومحتال كبير" وزيادة على ذلك فهو منافق متناقض مع نفسه يقول شيئاً ويسلك عكسه. يدعي أنه يصلي ولكنه "كذاب... لا صلاة يصلي ولا بحاجة إلى واحد مثال، بحاجة للفلوس. وفوق ذلك" الصلاة والصوم وكل العبادات فخاخ ومصائد ينصبها حتى يصيد بها الفلوس" (183).

هكذا كان الحكيم: همه الأول جمع المال؛ لهذا تقرب من السلطان وتظاهر بالتقوى ليحترمه الناس ويثقوا به وتخلق بأخلاق السكان وتحدث بلهجتهم رغم أنه يعتبرهم في قرارة نفسه من "البجم ". هكذا كان الحكيم يجمع ما بين المتناقضات إذا كان من مصلحته الجمع بينها لتحقيق مآربه وطموحاته وإن كان ذلك على حساب غيره.

وتظهر مظاهر الازدواجية في حياة السكان العائدين لموران فهم من البدو ودخلت على بداوتهم الحضارة والتكنولوجيا وهم بين هذه وتلك يجمعون ما بين الاثنين. نفسيتهم بدوية أصيلة ومع ذلك يريدون أن يتعايشوا مع الوضع الجديد المفروض عليهم فرضاً. لذا نرى أن أغلب عيشهم يجمع ما بين القديم والحديث. ما بين الأصالة والمعاصرة. في كل ما يخص حياتهم: المأكل والملبس والمشرب والمسكن "كانت الإبل في ساحات الدور أو عند أبوابها. وكانت الخيام إلى جانب الغرف الطينية والحطب يتجمع في جانب من الساحات الكبيرة التي حضرت فيها المواقد وجُهزت. وغير بعيد في الجانب الآخر من الساحات...المطابخ....الخ" (184).

وقد ظهرت الازدواجية عند هؤلاء البشر كأحد نتائج الاغتراب. فالاغتراب قد يضع الإنسان موضع المتعلق بين القديم والحديث لا هو مع هذا ولا هو مع ذاك، يحب القديم ويريد أن يثبته ويفرض عليه حديثا يضطر إلى التعايش معه، ويكون الحل هو الجمع بينهما. ومثال ذلك شخصية العتيبي التي وضعت ضمن باب الاغتراب نلاحظ أنه رغم عداوة العتيبي للجديد، فإنه قد بدأ بالتعامل مع بعض عناصره بمقدار ما تقدم له هذه العناصر الماضي أو تذكره به. فها هو يحمل الراديو ويستمع إلى برنامج البادية. لأن برنامج البادية الذي يسمعه كل خميس يذكره ويشده.

أما في السقوط إلى أعلى فالاغتراب والازدواجية صفتان لصيقتان بمعظم شخصيات هذه الرواية. فجميع الشخصيات تعيش عالم ما بعد النفط. تعيش عالم المال والسهرة وهي لا تستطيع الاستغناء عن هذا العالم بل دائماً تطلب المزيد.

فراس أولى الشخصيات المغتربة. شرقي شامي عاش في باريس مدة من الزمن ثم رجع إلى بلاده، إلى الشرق بشكل مؤقت. لكنه فجأة يقرر الاستقرار في الشرق. قرر الذهاب إلى الصحراء والرمال... إلى الخيام والخيل والبدو الرحّل، يدخل فراس هذا المجتمع الجديد مجتمع البدو والخيل وفي نفس الوقت مجتمع المال والطموح. فراس المثقف المتعلم المطلع على هذه الدنيا ذهب ليعيش بين أناس لم يجعل منهم المال إلا أشباه رعاة، وأشباه مثقفين وأشباه جهلة وأشباه مفككين. قوم انتقلوا بين يوم وليله من القرون الوسطى إلى القرن العشرين بطائرة خاصة (185).

في وسط هذا المجتمع بدأ فراس يحس بالاغتراب، لقد وجد نفسه بين قوم لم تؤثر كثرة المال في أفكارهم ومعتقداتهم. تغيرت أشكالهم الخارجية. بدأ الترف والمال يظهر عليهم، لكنهم من الداخل كما هم لم يتغير فيهم شيء. كان أول ما لاقى فراس في هذه البلاد أن أُخذت منه قيثارته لأنها من أعمال الشيطان الرجيم. بدأ فراس يرى المتناقضات في هذه البلاد. بدأ فعلاً وكأنه يعيش في القرون الوسطى في وسط هذه الصحراء. ولمس حقيقة أثر هذه الثروة المفاجئة على الناس وسكان الصحراء، وأوجه التغير التي تمخضت عن هذا الانقلاب المفاجئ في حياة هؤلاء البشر.

وكما رأينا سابقا، جلب النفط معه من السيئات أكثر مما جلب من الإيجابيات ــ كما تصوّر الرواية ــ يقول فراس في رسالة إلى صديقه الفرنسي راوي القصة:" في وسط الصحراء..في وسط ألوف السنين من صمت عميق: يؤنسه خرير جدول آمن، في واحة وديعة وارفة. تمخض الجهل عن شيطان نبش في الأرض ثروة فأقام الدنيا وأقعدها. لطخها من عرقه قذارة ومن دمه عاراً ومن زبده فسقاً وكذباً ومجوناً". وكما قال صديق فراس " لا بد أن فراساً عاش في تلك الصحراء لحظات لا يستطيع المرء أن يكتب عنها. ماذا وجد ؟ وبم أحس ؟ (186). لم يعايش فراس في تلك الصحراء أيَّ طبقة، بل الطبقة الأولى في ذلك المجتمع: طبقة الحكام والسلاطين، طبقة لا ترى في الدنيا من هو أفضل منها. طبقة تعامل السفراء على أنهم خدم لا أكثر. ولا يرون في الطبيب إلا مأجوراً يعالج ليأخذ أجره فقط من دون أدنى احترام. تتسلل الغربة إلى نفس فراس. وأبرز دلائلها هو الشعور بالوحدة، الوحدة المطلقة، إن شعوره بالوحدة يتعمق كلما اقترب من الناس، وتتوسّع الفجوة بينه وبينهم كلما ازداد احتكاكه بهم ، وربما يتصل بهذا المظهر مفهوم الاغتراب بمعنى "الموضوعية"، الذي يشير إلى "نظرة الفرد للآخرين كشيء مستقل عن نفسه، بصرف النظر عن طبيعة العلاقة التي تربطه بهم" (187). كان يحب أن يلجأ إلى الصمت كأن الصمت هو الملاذ الوحيد لتلك الغربة لم يكن اغترابه وخصوصاً في البداية عادياً. عالمٌ آخر بعيد كل البعد عن عالمه. عالمه الغربي أكثر منه عالمه الشرقي. هذا الشاب الذي قضى معظم حياته في باريس يعيش في الصحراء والرمال ويرى ما لم يكن يتوقعه.

ولم يخفف عليه هذا الشعور سوى تلك الصحبة والصداقة الجديدة في ذلك العالم. صداقته مع قطر الندى وميساء حتى لم يبق موضوع لا يستطيع أن يخوض معهما فيه. فكانت شكواهما له سبيلاً ليزيح عن نفسه ما فيها من ألم مبعثه هذه الغربة التي يعيشها. حتى المواضيع الجنسية لم يكن هنالك أي حرج من مناقشتها فكانت قطر الندى تشتكي له من معاناتها مع زوجها جلال. وكذلك هو لم يجد حرجاً من إبداء رأيه ومناقشتها في شكواها وإخراج ما في نفسه من كبت في نفس الموضوع. هذه العلاقة بدأت تخفف من

شعور الاغتراب عند فراس بدأ يحس أنه من هذا العالم ومخلوق فيه. كان من النــوع الذي يستطيع التحكم، إلى درجة ما، بمشاعره إلا في بعض المواقــف. ولــم يعــاوده الشعور بالاغتراب ويقوى عنده حتى جعله يفكر بترك الصحراء والعودة إلى بــاريس سوى خيانة تلك الصديقات له وغدرهن بتلك الصداقة التي أخلص لها فراس.

لم تكن قطر الندى وميساء ولا حتى زوجــة فــراس بمعــزل عــن الــشعور بالاغتراب. فقطر الندى رغم ما تتمتع به من جمال وثقافة إلا أنها دائماً تحس بالنقص وبحاجتها إلى المزيد. كذلك أختها ميساء، فرغم ما تتمتعان به من جمال وثقافة ومال إلا أن طموحهما دائماً يحلق في أمور بعيدة تفوق الحد. وأن تحلم المرأة بأن تكون أميــرة أصبح هو الشاغل الأول والأخير لكل واحدة منهن. وعلى الرغم من أن قطر النــدى أصبحت أميرة إلا أنها لم تستطع المحافظة على هذا اللقب. لقد كان زواجها من هلال هو ما أعطاها الحق في هذا اللقب ومع ذلك لم تكن لتستطيع المحافظة على هلال ليبقى لها هذا اللقب.

إذن كان فراس يعبر عن غربته بالصمت الناتج عن شعوره بالوحــدة وقطــر وميساء تعبران عنه بعدم الاكتفاء بشيء مع عدم المعرفة الحقيقية لما تريــدان. همــا تريدان المال والجاه والشهرة بالتأكيد. لكن ماذا بعد ذلك وإلى أين تريدان أن تــصلا؟ حتى هما نفسهما لا تعرفان الإجابة. قطر لا تريد هلالا؛ لأنها لا تحبه لكنها تريده لأنه يجعلها أميرة. تعرف أنه يحب امرأة أخرى ويعشقها فلا يضايقها غير تفكيرها في أنه سيطلقها. أما زوجة فراس فلم تكن أقل منها غربــة، و إذا كانــت قطــر وميــساء لا ينقصهما الجمال. فإن الجمال كان سبب ما تعانيه زوجة فراس من اغتراب، كانت تعلم أنها ليست جميلة، وكانت تشعر بالنقص خصوصا أنه ليس لديها ما يغطي هذا النقص رغم تفاخرها بعائلتها، لكنها كانت تعلم أنها لن تصل في يوم من الأيام لما وصلت إليه قطر وميساء. لذا كانت تستلذ أن تعرف أنهما تغوصان في الخطأ ، لا بل وكانت تتستر لهما ذلك. فكان بيتها مكانا لالتقاء قطر الندى بعشيقها، ولــيس البيــت فقــط، كانــت تستقبلهما في غرفة نومها حتى يمارسا العشق فيها، وإذا كان الانحراف هو ما آل إليه

وضع قطر الندى والإهانة وانحطاط الكرامة لميساء، فإن هذه لم تكن بمنأى عن مثـل هذه النهايات. فكثرة تفكيرها بما هي فيه جعلها تكثر من الخطأ، وكثرة الأخطاء جعلها تفكر بأن تتخلص من زوجها لأنه أصبح عقبة في طريق طموحها. وكانت تـسعى لأن تصبح محبوبة وعشيقة مثل قطر الندى وميساء وبوجود فراس لن يتيسر لها ذلك وكانت النهاية أن اختارت الطريق الخطأ واللذة في نفس الوقت..

أما الازدواجية فتبدو جلية واضحة في " السقوط إلى أعلى"، وقدّمت أحيانا بطرق مباشرة، كما اتخذت أشكالاً متعدّدة يمكن إيجازها ضمن المفارقات التالية:

من خلال حياة فراس في الصحراء يتمكن من الكشف عن حجم التطور الذي أصاب الحياة؛ تحوّل سلبي، يراه فراس مدعاة لاحتقارهم، واحتقار حياتهم، ويكشف ــ من خلال المقارنة بين الشرق والغرب ــ حجم التخلف الذي تحياه العقلية العربية التي أحالتها الثروة المفاجئة إلى مستهلك باذخ، دون أن تنعكس عليه حضاريا وثقافيا وعلميا، مع ضرورة التنبيه إلى أن الرواية تصوّر آفاقا تخيّلها المؤلف لتلك البيئة النفطية فور تدفق هذا النفط، وتصور موقف الإنسان الصحراوي، الحاكم على وجه الخصوص بُعَيْدَ حدوث هذا الانقلاب المفاجئ.

إن التحوّل بهذه السرعة المذهلة كان يفوق قدرة الإنسان العربي العقلية[الأمير هنا]، فعجز عن استيعاب هذا التحول؛ ممّا أحدث في سلوكه اضطرابا واضحا وانحرافا جليا. فوجود ثقافة صحراوية بدائية فيها من السلطة بقدر ما فيها من التخلف، وانعدام المعالم الحضارية، وبروز ثروة نفطية هائلة، كان من المفترض أن تغير معالم الحياة البدائية والتخلف. غير أن هذا الأمر كان صعب التحقق بسبب مركبات النقص الكامنة في أعماق العقل، فبدت مظاهر الحضارة في إطار بدائي ــ مزيجا غير متجانس شكل لوحة متنافرة الأشكال والألوان غير مريحة للناظر، فضلا عن التعايش معها. لقد أصبحت البيئة بفعل العجز عن التكيف والتعامل العقلاني مع مفردات الحضارة أمرا غاية في البشاعة، أو لوحة (كاريكاتورية) مدعاة للسخرية!

ولا يقف الأمر عند هذا الحد، فاللياقة والثراء والإمارة تتطلب سلوكا حياتيا راقيا، بيدَ أن ذلك لم يحدث؛ إذْ ظل الكثير من العادات القديمة يسير جنبا إلى جنب مع الحياة الجديدة، بل ويعمل على إفسادها في أغلب الأحيان؛ فنرى قطر الندى تلمح بطريقة نقدية ساخرة إلى طريقة تناول الطعام" ... لكننا رغم ذلك نأكل بالشوكة والسكين... ولا تمسح رجالنا لحاها بالدهن الذي يقطر من أيديها" (188). فنوع الطعام وانعدام شروط اللياقة، بل أحيانا شروط النظافة جعلتها الرواية ملامح من صورة البدوي الذي حافظ عليها بعد الثراء. ويقودنا هذا التجاور المتنافر إلى الإشارة إلى مشهد يتعلق بتناولهم(هلال ومن معه) الطعام في أرقى فنادق أوروبا، ففي جنيف يقول السارد فيما يشبه "التهكم السادي":

"... أمضوا الليل يلهون ويتسامرون، يضحكون من ولائم جعفر التي فُرض عليهم تناول الطعام فيها في غرف النوم خوفا من أعين المراقبين، ولائم لم يتنوع فيها الطعام... خروف (محشي)(!) بالأرز، طبق كبير يحتوي من الطعام ما يكفي لعشرين شخصا... وفي كل وليمة يُعيد جعفر على مسامعهم قصة المشقة التي عاناها طاهي الفندق لاستحضار السمن العربي... كلما انتهوا من تناول الطعام يطلب إحضار القهوة " (189).

هذا المشهد ليس سلوكا فرديا بل هو سمة عامة؛ إذ نجد هلالا في باريس يدعو قطر الندى إلى العشاء في غرفته أيضا: "كان قد أعد خروفا محشيا(!) بالأرز... إنما هلال فطن ... يحمل دوما صفيحة من السمن العربي بين حاجيات سفره" (190).

أما الأماكن الجميلة فيمكن دخولها بل يمكن اقتناؤها طالما يتوفر المال، ولكن هل يستطيع الأعرابي الخارج توا من أعماق الماضي أن يقدّر قيمة الجمال، ويحافظ على ما في الأماكن من تحف فنية نادرة؟ هل تستوعب منظومة قيمه التي تشكلت عبر مئات السنين القيمة الفنية للتحف والآثار؟ يروي النص قصة شراء جعفر(حاجب الأمير] قصر لوزان في باريس : "كيف اهتدى جعفر إليه... جعفر وأمثاله لا يميلون إلى ما هو من الطراز القديم... دراهمهم لا تمسّ سوى الجديد والتجاري... القبيح منها... هل تتبه

إلى فساد ذوق قومه، فأراد بهذا القصر أن يبرهن على ذوق جديد؟" (191)، بيد أن الرواية تكشف فيما بعد أن العقلية البدائية لا تقدر قيمة الفن؛ فتتعامل مع محتويات القصر بصورة" همجية"، إذْ تُفسد كل مظاهر الجمال فيه متكئة في ذلك على اعتقادات دينية، ولا ترى فيه سوى مكان فسيح أو" دار واسعة للإقامة"، بل أصر الشيخ على أن يربي فيه ماعزا؛ لأنه لا يثق بحليب الأسواق (192)، إن امتلاك المال لم يمكّن الأعرابي من التعامل مع هذا الصرح الحضاري التاريخي النفيس، وهو واحد من أجمل قصور عصر ما بعد النهضة في أوروبا، فأفسده وغير معالمه. قاموا بإزالة رسوم لنساء عاريات وحيوانات رسمت مباشرة على الجدران، وحطموا التماثيل أو أحرقوها بحجج دينية. ولما سئل: لماذا لم يعطوا هذه الكنوز إلى من يحبها أو يبيعوها؟ أجاب باستغراب: " نفرق الحرام على الناس؟ نبيعها؟ ونأخذ مالا قذراً؟" (193)، وهنا تختلط المعايير؛ ففي حين تهدر الأموال ــ كما سنرى ــ على النساء والخمرة، نجد أن أثمان هذه التحف يغدو محرما! وثمة مثال آخر على هذه المفارقات، فحين يصل فراس إلى المطار متوجها إلى الصحراء، يصادر رجال الأمن قيثارته لأنها من أعمال الشيطان الرجيم، والنغم رجس وحرام (194).

ويتراءى للقارئ أن الكاتب لا يقف عند المسائل الدينية في عالمه الروائي؛ إذ لا يبدو الدين محركا لسلوك شخصياته، ولا يمثل وازعا هاما، ولا نجد إشارةً إلى ممارسات دينية حقيقية كالحج والصيام والصلاة، أو إنفاقا على شكل الزكاة، أو مساجد. ويبدو فهم هذه الفئة للدين سطحيا شكليا، وليس مبنيا على قناعات... ومع ذلك فهي تتخذ الدين ــ كما رأيناــ حجة للقمع والاستلاب وسرقة أموال الناس. يرسل فراس رسائل إلى صديقه الراوي يصف في إحداها مشاهد مؤلمة تعود إلى مراجع دينية؛ إذْ يقام حدّ السرقة على الفقراء، وقد عبر النص عن هذه المسألة بطريقة غاية في المباشرة" في وسط الصحراء ، يقبض على إنسان جاع فسرق، ولا يقبض على غيره من سارقي الملايين... إن الذراع المبتورة تغمس في الزيت الحامي حتى ينقطع الدم، وقد يكون ثمن الزيت أكثر مما سرقه ذلك الإنسان من مال" (195).

وفي مقابل هذا الإذلال والقمع للناس العاديين تقدم الرواية أنماطا عجيبة من البذخ والإسراف والمتاجرة بالقيم الإنسانية والرق والعبودية. يقضي الأمير والمقربون منه أيامهم العادية في اللهو والمجون، ونقرأ في الرواية حوارا بين فراس والراوي يكشف عن التناقض في حياة هذه الفئة:

-بماذا كانوا يتسلون في هذا البلد النائي؟

- وهل هنالك سوى المقامرة والجنس؟
- الجنس؟ وهل هذا متوفر؟
- بكل أشكاله، وجميع طرقه ... لتلك الطبقة على الأقل (196).

ولا يخفى هنا أن ربح المال لا يشكل هاجسا لدى هؤلاء، ولا تسبب خسارته عبر اللعب به ألماً، مع احتفاظ هذين المسلكين بكل الدلالات من حرام وعيب ومخالفة للقانون ودمار، ويضاف إلى ذلك الإدمان على شرب الخمرة. وينسى هؤلاء عندها تعاليم الدين التي يجلدون الناس بها. وترصد الرواية أيضا مظاهر الترف لكي تفضح الاتجار بالقيم الدينية، وتكشف عن تجاور معاد بين مفردات الحياة الجديدة والعقلية المتخلفة التي لم تستطع أن تواكب التقدم البشري.

تفرض شخصية الأمير ومكانته نمطا معينا من حياة البذخ، فعندما تزوج الأمير من قطر الندى قيدها بالماس والذهب في حفل " يزخر بالبذخ والمال والبلادة... حصل جميع من كان حاضرا على الهدايا... استل هلال من جيبه دفتر شيكاته، ووقع على ورقة أعطاها إلى قطر الندى طالبا منها أن تملأها بالمبلغ الذي ترتئيه. هل هذا تحدٍ؟ أم أنها طريقة الأمراء في احتقار المال؟" (197)، ويبدو أن الأمير لا يحتقر المال، وإنما أراد التعبير عن قدرته على شراء البشر. ومن مظاهر الترف المرافق بقتل الناس وقطع أيديهم الرحلات الترفيهية إلى الخارج والداخل. كل أوروبا أصبحت مسرحا لزيارات الأمير وحاشيته ولفترات طويلة، وتمارس فيها كل مظاهر البذخ والإسراف واللهو والزنا والسكر. أما الترفيه الداخلي فيأخذ شكل الرحلة إلى "البر" الذي كان إلى عهد قريب جدا جزءا من حياة هذا البدوي:" الخروج إلى البر رحلة إلى البادية لا يقرر

مدتها سوى السلطان وانشراحه. رحلة فيها الصيد والمتعة وزوال الكلفة والرجوع إلى ما كانت عليه الحياة في البلاد قبل مئات السنين... تحركت سيارة السلطان، يتبعها سيل من سيارات الأمراء. بينها ما طليت أجزاؤها بالذهب... شاحنات تحمل المؤونة... وأخرى تحمل المتاع... مئات الخيام الرائعة... خيل عربية أصيلة... بنادق منقوشة بالذهب... صقور مدربة.. سيوف مرصعة بالأحجار الكريمة" (198). ويتضح مما سبق أن الحياة العربية قائمة على المفارقات: الادعاء بالتدين وخرقه سلوكا، الجمع بين مفردات الحاضر المستورد والعيش في ظل منظومة قيم بالية لا تتناغم والموجود، حق الملكية للأشياء والناس وحرمان البشر من أبسط حقوقهم، التهام المنتج الغربي واستهلاكه دون أية محاولة لفهم هذا المستهلك أو الشروط التي أفضت إليه، فضلا عن هامشية العقلية العربية وعدم قدرتها على المساهمة في الإنجاز الإنساني، أو على الأقل تطوير المجتمعات العربية وتهيئتها للإبداع الذي ربما يكون بديلا نافعا عند نضوب النفط، وانهيار المدن، كما عبرت عنه "مدن الملح" في موضع سابق من هذه الدراسة.

الفصل الرابع

الطبقية

إنّ المجتمعات النفطية في أغلبها مجتمعات بدوية، أو على الأقل الأصل فيها بدوي. وهذه المجتمعات لم تكن مجتمعات معقدة فالمستوى المادي متقارب بين فئات هذه المجتمعات، والأعمال متشابهة تعتمد في معظمها على نفس المصادر إما الزراعة والماشية أو الاعتماد على التجارة من خلال القوافل التجارية؛ لذا امتازت هذه المجتمعات بالبساطة (199).

لم يكن مجتمع بهذه البساطة ليغري أيا من سكان المناطق الأخرى ليأتي ليستوطن فيها؛ لذا كان كلّ ساكني هذه المناطق هم أهلها الأصليين الذين لم يختلطوا بغيرهم من السكان.

كان لكلّ قبيلة شيخ أو أمير وهو ما سمي فيما بعد السلطان. وربما شكّلت هذه الشريحة الاجتماعية الطبقة الوحيدة الموجودة في هذه المجتمعات. الشيخ وسكان قبيلة أو السلطان والمحكومين. لكن حتى هذه الطبقية لم تكن بالمعنى الفعلي. فالسلطان في مجتمع "مدن الملح" قبل ظهور النفط لم يكن إلا واحدا من أفراد القبيلة. كان يحس بهم ويشعر معهم ويساعدهم ويقف بجانبهم. كان يعاني مما يعانون.

جاء النفط وجاء معه التغيير، فهل بقيت هذه المجتمعات على حالها ؟ هل بقيت طبقته كما هي؟ وإن بقيت كما هي، أو تغيرت هل حصل التغيير على نوعية الطبقة ومن ينتمون إليها؟ لقد غير النفط الكثير من المفاهيم والمصطلحات وأدخل الجديد منها كذلك. أدخل شرائح اجتماعية لم تكن موجودة. لذا ازداد عدد طبقات المجتمع مع ظهور النفط وأهم هذه الطبقات جميعا طبقة الوافدين الذين لم يظهروا بكثرة إلا مع ظهور النفط. هذه الطبقة الدخيلة على المجتمع المحلي جاءت لتجد لها مكانا وسط هذه الثروة الناجمة عن هذا الذهب الأسود.

1.4-طبقة الحكام والسلاطين

هذه الطبقة المنتقلة عبر الأزمان انتقلت من زمن قبل النفط إلى زمن بعد النفط: " في ذلك الزمن كل شيء مطروح لإعادة النظر لإعادة القسمة، الأفكار المناطق الدول حتى الملوك والسلاطين والأمراء الصغار"(200). تلك الطبقة الحاكمة رغم وجودها قبل النفط إلا أنه وجود متزعزع لم يستند إلى قوة معينة تسانده بل يعتمد على القوة. لم يكن هنالك من يتدخل في هذا التغيير السريع في الحكم. بل كما قلت يعتمد على القوة القوي يستولي على الحكم و إذا ظهر أقوى منه أزاح السابق وجلس مكانه:" الملوك والسلاطين ومعهم الجواكر يخترعون في التو واللحظة ليتولوا الأمور أو يحكم عليهم بالنفي إلى الجزر البعيدة لكي يموتوا هناك منسيين و بصمت " (201).

وهذا لا يعني انتفاء التدخل الخارجي نهائيا، إلا أنه تدخل بسيط يعتمد على المصلحة. فقد كانت المنطقة تابعة لبريطانيا ولم تكن بريطانيا لتتدخل بما ليس لها مصلحة فيه. لكن إذا لمست أي تمرّد من جهة معينة ومحاولة الخروج عليها عندها تتدخل. وأحيانا تتدخل بقوة فهي لم تتوانَ عن إرسال مجموعة من المستشارين والرجال الذين يمكن الاعتماد عليهم ليس فقط في رماية المدفعية والرشاشات وإنما أيضا في أمور أخرى كثيرة. ولم تنس أن ترسل معهم الأموال والهدايا(202). جاء كل هذا فقط لمحاولة مزهر بن سحيم، مثلا، طلب المساعدة من أعداء بريطانيا. فماأن ذهب الأخير إلى أعداء بريطانيا طالبا العون والمساعدة حتى انتفضت بريطانيا وتدخلت لمنع هذه الكارثة. لكن هذا التدخل و إن حصل فهو قليل يعتمد على المساس بمصالحها الرئيسية. أما التدخل في الشؤون الداخلية لهؤلاء البدو فلم يكن موجودا، وكذلك الأمر في التدخل في حياة السلطان الشخصية، بل كان السلطان يعيش بطريقته الخاصة. يتعدى على أي أرض يريدها. ويضيفها لملكه يتزوج، ينتقل من منطقة إلى أخرى ليزيد من عدد زوجاته و أولاده(203).

كان يتخذ المستشارين وربما اتخذهم من الأجانب، فها هو السلطان خزعل يتخذ من هاملتون مستشارا، لا بل ويزيد على ذلك بكثير؛ حتى أطلق عليه السلطان لقب

الصاحب، وحتى الأمراء لهم مستشاروهم الخاصون وقد يتخذون حرسا لهم. فالأمير فنر يتخذ مستشارا خاصا وحارسين يذهبان معه في زياراته(204).
فقد كان للأمراء ميزات أقرب ما تكون لميزات السلطان نفسه فهم على الأغلب أولاد السلطان لذا كانت لهم الكلمة المسموعة بعد كلمة السلطان:
" فالسلطان الذي لم يكن يترك لأحد أن يتصرف أو يقرر في الفترات السابقة. أصبح أنسانا آخر في المرحلة الجديدة "(205).

وعلى الرغم من أن النفط ليس موجودا إلا أن الأحوال المادية للسلطان ليست سيئة، فالسلطان لديه الكثير من الموارد المالية التي تدر عليه الربح وأهم هذه الموارد هو ما يحصل عليه من غزو المناطق الأخرى. ويظهر أثر غنى السلطان من خلال الأمراء والأميرات وزوجات السلطان. فزوجات السلطان كل تحاول التقرب أو بالأصح تحاول أن تثبت أنها الأقرب للسلطان ودليل ذلك قدرتها على طلب أي مبلغ تريده. وهذه الزوجات بالطبع يسكنَّ في قصر مشترك. أي أن السلطان وحتى قبل ظهور النفط لم يكن ليسكن في أي مكان بل في قصر فخم يلفت الأنظار إليه " كان القصر شيئا عجيبا. عشرات الأجنحة والغرف التصق بعضها ببعض في آخر لحظة. على الجوانب غرف الحرس والخدم وفي الوسط البناء الرئيسي "(206). وهذا ليس القصر الوحيد الذي يملكه السلطان فللسلطان قصور في كل مكان. كلما غزا مكانا جديدا وأعجبه المكان اتخذ فيه قصرا لرحلاته العابرة. أو تمضية إجازته الخاصة مع بعض نسائه.

إلا أنه وبالرغم من كل هذا البذخ إلا أن هذا لا يعني أن أموال السلطان لا تتأثر بالأحوال العامة. لا بل إن هذه الأموال تقلّ وربما بصورة كبيرة في حالات القحط وقلة الأمطار. فإذا أجدبت الأرض و أحس الناس الفقر وضاقت بهم الدنيا فإن هذه الطقوس سريعا ما يصاب بها قصر السلطان. يظهر التقشف وقلة الصرف واختفاء بعض ملامح البذخ، فالقحط والجراد وقلة المطر لا تؤثر على العامة فقط إنما يصل تأثيرها إلى السلطان نفسه.

وليس للسلطان مصادر دائمة يعتمد عليها في جني المال فلا صناعة ولا تجارة، إنما الحرب والمعارك. وهي وإن كانت مصدراً ماليّاً، إلا أنها أيضا إرضاء طموح؛ فالبدو يجدون في الحرب والمعارك لذة وبالقوة إرضاء لجبروت السيطرة. والسلطان يبقى بدويا، و إن كان سلطانا فإنه يمتاز بما يمتازون به.

هكذا هو السلطان قبل أن يمتلك النفط. فهل طرأ تغير على حياة السلطان أو على نفسية وطبيعة السلطان بعد ظهور النفط. أجل لأن السلطان هو أول من سهل عملية البحث عن النفط لأنه كما ذكرنا بدوي والبدو يحبون المال و لا يهتمون لمصدره أو طريقة الحصول عليه، فقد قال عنهم هاملتون الإنجليزي أو الصاحب:

" هؤلاء البدو لا يعرفون سوى شيء واحد: المال. المال يدير رؤوسهم ويجعلهم أطوع و أسرع من الماء على منحدر ويحولهم إلى فم لا يعرف غير كلمة واحدة: نعم فإذا امتلكوا المال أصبحوا كالكلاب على العظام. لا أحد يستطيع أن يقترب منهم. لا يتركونها ولا يعرفون كيف يتصرفون فيها" (207).

وكما قلنا فإنّ السلطان هو واحد من هؤلاء البدو يحب المال ويحب الحصول عليه.

مر معنا في فصل سابق بان أول عبارة قالها الأمير، وهو المسمى من قبل السلطان، حين جاء الناس يشكون من وجود الغرباء في ديارهم للبحث عن النفط، قال لهم: " ستكونون يا أهل وادي العيون أغنى الناس وأسعدهم وكأنّ الله لا يرى غيركم "(208). فهل فعلا ما يهم الأمير أو السلطان هو مصلحة أهل وادي العيون؟ أو هل فعل ذلك وسهل أمر هؤلاء الغرباء فقط من أجل المصلحة العامة والطبقة العادية أم من أجل مصلحته الشخصية؟، وقوله: " وكأن الله لا يرى غيركم " هل يقصد فعلا أن خير هذا الجديد لا يأتي إلا على أهل وادي العيون ولن يصل لغيرهم لأنّ الله نظر إليهم ولم ينظر لغيرهم؟. والسلطان أو الأمير بدوره يسهل هذه المهمة أو سهل وصول الخير لهؤلاء الناس عن طريق تسهيل استيطانهم بالأرض البدوية. لكن نرى بعد قليل أن القصد يتكشف حين يقول الأمير: " الخير يا جماعة الخير إذا عم عم"(209).

وهذا هو القصد: الخير إذا عمّ عمّ. هذه هي السياسة فلم يحاول الأمير فهم الإصرار وراء هذا الوجود. أو فهم نفسية هؤلاء الناس لأنه مقتنع بأن هناك أموالا ستأتي من وجود هذا الدخيل، أموالا إذا أفادت فأول من ستفيد هذا الأمير، ثم على رأي الأمير يعم الخير على الآخرين.

جاء النفط وتدفق وكثرت الأموال ووصلت ليد السلطان والأمير. المال يزداد والعقل كما كان. بدوي لكنه يملك الكثير من المال، والمال الزائد عن الحاجة يوزع على الرعية. وكل ذلك جاء فجأة ودون سابق إنذار.

هل غير هذا المال من تفكير السلطان ؟ هل فتح السلطان مجالات جديدة من الكسب؟ أم أن كل ما فعله المال هو زيادة عدد نساء السلطان وزيادة بذخ تلك النسوة، وزيادة عدد القصور والوزراء والمظاهر الباهرة.

ويمثل الأمير هلال ــ في السقوط إلى أعلى ــ نموذجا آخر؛ فهو أمير ابن سلطان وأخ لسلطان:

" ولد بين جدران قلعة كبيرة من طين. وشب على الرمال بين قوم سعيد منهم من لبس حذاء. حتى إذا أغدقت الطبيعة من ثروتها على والده الشيء الهائل ناب أمه وهي المحظية الأولى لدى السلطان من الثراء الشيء الوفير." (210)

هذا وقع المال المفاجئ، فجأة يتغير الإنسان من حال إلى حال. رغم أنه ابن سلطان إلا إن المال لم يكن متوفرا وعلى حين غفلة جاء المال الكثير وكان أول ما فعله المال أن جعل زوجة السلطان ثرية، فهو مال زائد فلا ضير إن أعطيت مالا كثيرا ما دام زائدا عن الحاجة.

لقد عبر وليد حجّار عن هذا التحول ولا سيّما في حياة الأمراء والسلاطين بعبارة موجزة جسدها في شخص الأمير هلال، وتتيح الاطلاع على غرابة التحول وسرعته، إذْ قال: " ما ذنب هلال سوى أن ثراءه أتاح له أن ينتقل من القرون الوسطى إلى القرن العشرين بطائرة خاصة"(211). ماذا غير المال في عالم السلطة والتسلط. لقد أنفق المال على الزوجات وشراء ما لا يلزم والولائم الكثيرة دون مناسبة. فهل كان

ذلك حلا لمشاكلهم أم كما قال هاملتون " فإن الأموال لا تحل مشاكلهم إنها تفسدهم، تجعلهم أناسا غير نافعين لا للعمل ولا للحرب "(212).

هذا الأمير هلال تزوج من قطر الندى: " زفت قطر الندى إلى هلال في حفل يذخر بالبذخ والمال والبلادة "(213). من الممكن أن نفهم البذخ والمال لكن ما هي البلادة التي زف بها هذا الأمير. هل هي بلادة من حوله في الحركات والتصرفات نتيجة لفقدان العقل أم لأن هذه صفة أصيلة فيهم ؟ أم أنها أجواء عامة نتيجة الفرحة والصخب وعدم التفكير. لكن المهم هل أثر المال على عقل هؤلاء الأمراء والسلاطين؟ هل أثر المال في تفكير الأمير هلال وهو كما يصفه الناس " رجل مثقف يتكلم الإنجليزية ويقضي معظم أيامه في أوروبا"(214)؟ أم أن البيئة الأصلية التي أفضت إلى انتقاله بالطائرة الخاصة إلى هذا القرن ما زالت عالقة في عقله؟ اختلف هلال مع زوجته خلافاً عادياً يحدث بين أي زوجين، لكن ما كان رد هلال المثقف الذي يقضي معظم أيامه في أوروبا، ماذا قال لهذه الزوجة ؟ قال: " أحذرك... أحذرك أن تنسي من أنت أو تنسي أنك تخاطبين أميراً... وابن ملك ".(215)، يعير زوجته بأنها امرأة، وكأن المرأة مخلوق يقل عن مستوى الإنسانية. وهي حين تجادله ترقى لهذا المستوى البشري وتنسى كونها امرأة. ابن أوروبا وابن الحضارة والتقدم يذكّر زوجته وهي أقرب الناس إليه بأنها تخاطب أميرا وابن ملك. وكأنها ليست زوجته بل جارية ونسيت نفسها وهي تخاطب سيدها فتعدت الحدود. أصبح ثرياً، هذا صحيح، لكنه لم يغير العقل الذي لديه عقل القرون الوسطى نفسه انتقل إلى القرن العشرين ليعيش فيه.

أما السلطان خزعل فقد كان المال وسيلة جيدة ليسكت إخوته عنه حين تولى السلطنة فقد كان يغدق عليهم المال دون تردد وبلا حساب(216). هذا السلطان الذي حرم لبعض الوقت من هذا المال أيام أبيه وهي كما يصفها منيف "كانت تحده نظرات أبيه أو زجره وبعض الأحيان امتناع أمين الخزانة عن تلبية طلباته.بحجة أن الأموال المودعة لديه قد نفدت"(217). هذه هي الحجة الأساسية للمال عند هذا السلطان إسكات كل معترض. وهي وسيلة ناجحة ونافعة فالمال في رأي السلطان وغيره قوة ما بعدها

قوة؛ يستعذب المرء الذل مقابل اكتشاف هذه القوة بهذه المفارقة العجيبة. لكن في تلك البلاد كانت تقام المشاريع التي يتابعها السلطان نفسه فهو يرغب في أن "يتفقد المشاريع التي تنفذ وأن يسال المهندسين وأمراء المناطق عن المراحل التي وصلتها هذه المشاريع وما إذا كانوا بحاجة إلى اعتمادات إضافية أو إلى مساعدات من أي نوع" (218). وهي مشاريع غير واضحة المعالم والأهداف! أهي مشاريع خاصة بالسلطان أم هي مشاريع عربية بحتة أنشاها السلطان ومن حوله. هل فكر السلطان فعلا في مشاريع ضخمة يستثمر فيها الأموال، أم هي مشاريع أجنبية للتنقيب عن النفط، والسلطان فقط حارس عليها يتفقدها بين الحين والأخر ليطمئن على حصته؟!

وتطالعنا شخصية جعفر، أحد أبرز أصدقاء الأمير هلال في رواية حجار هذا الإنسان بدوي خليجي، كما ورد في الرواية، يملك الكثير من المال بحكم عمله عند أميره، وإذا ما أخذنا جولة في قصر هذا الأمير الذي يعمل عنده جعفر ماذا نرى؟ نرى ـــ كما رأينا في فصل سابق ـــ عقلا بدويا بحتا ينسف حضارة كبيرة. نجد قصرا دمِّر من الداخل وخُلعت الجدران لأن عليها رسومات وأشكالاً رأى جعفر أن الدين حرمها. شوه القصر بالكامل لأنّ العقل البدوي لم يستوعب هذا التحضر وهذا التراث. قشرت الجدران بالكامل ووضع بدلا منها نايلون ليغطي العيوب الناتجة عن القشر(219). ثم لننظر إلى هذا الحوار البسيط بين جعفر وفراس بطل روايتنا حين سأل فراس جعفرا فيما إذا كانت هنالك تحف أو تماثيل فنية في القصر حين اشتروه أجاب جعفر: "طبعا، طبعا...كانت هنالك تماثيل وأصنام كثيرة..الرخام والمعدن والخشب وصور صغيرة الحجم تملأ الجدران"(220). وحين سئل أين ذهبت ؟أجاب:"لقد حطمناها جميعا ،طبعا...وأحرقنا القابل للحرق منها" (221).

ثمّ إنّ هذا الأمير الذي يمتلك هذا القصر في جنيف يربط ماعزا في حديقة هذا القصر. والسبب أن هذا الشيخ الكبير صاحب القصر لا يثق بحليب الأسواق وبدلا من ذلك استحضر هذه الماعز من بلاده كي توفر له الحليب الطازج؟(222). مال كثير، قصور فخمة، سفر إلى الغرب، بذخ زائد، تداخل بالغرب. ورغم ذلك يقبع هذا الأمير في

داخله ويأبى تقبل عقلية الحياة الجديدة وقيمها العلمية، لم يتغير في عقول هؤلاء إلا التفكير الزائد في كيفية صرف هذه المبالغ الطائلة وفي كيفية إظهار القوة المستمدة من هذه الأموال.

لقد هدفت من إيضاح بعض المفارقات هنا ـ ولو على سبيل التكرار ـ للتدليل على أن النفط لم يخلق وعيا طبقيا للأغنياء. ولو كان الأمر على النحو الذي نراه في بلدان غنية كثيرة، لوجدنا كثرة الاستثمارات، وإنشاء المشاريع الضخمة التي تدرّ ربحا على أصحابها، وتعمل في الوقت نفسه على تشغيل الناس وتخلق مجتمعا متحضرا. وقد أكد هاني الراهب في روايته، في مواقع كثيرة، على مسالة ثبات القيم عند الطبقة العليا المتسلّطة، التي لا يتجاوز وعيها التفكير في الاستحواذ على السلطة والمرأة والمال، وهي مفردات تشكّل إيقاعا ملموسا في الروايات التي جعلت النفط محورا لها، أو أحد محاورها. إن تعاون أبناء هذه الطبقة مع الأجنبي فضلا عن اللجوء إلى السرقة واستغلال العمال والنفاق والإجرام، في بعض الأحيان، جعل هذه الطبقة تُثري على حساب الأكثرية، ومكّن لها مواقع متميزة في خارطة المجتمع. ويجب التأكيد على أن تفجّر الثروة وتسارعها بشكل غير طبيعي ترك بصمات واضحة على القيم الأخلاقية، وازدياد التنافس غير المشروع بين أفراد هذه الطبقة.

2.4طبقة كبار رجال الدولة

لا بد لأي سلطان و أي أمير من حاشية تحيط به. حاشية يستشيرها في أمره وشؤونه وشؤون البلاد. وهذه الحاشية إما صالحة و إما طالحة وهذا ما لم يتغير قبل النفط أو بعده. لكن التغير الحاصل هو في نوعية هذه الحاشية وفي نوع الوظائف التي تشغلها. فهي قبل النفط كما لاحظنا تتكون في معظمها من أهل السلطان والأمير والعم والأخ والابن. فهذا خريبط إن بحثنا فيمن حوله نجد أنهم عمه رحيم و أولاده ويمكن أن نجد بعض من ناسبهم و أشخاصاً آخرين يندر أن لا يكونوا على علاقة وثيقة بالسلطان. كان هم السلطان الأول والأخير أن يبقى ملكه لأولاده من بعده؛ ولذا لم يكن

من السهل على السلطان أن يعين مستشارا له ما لم يعرفه ويثق به. وكانت الحياة قائمة على القتال والحروب والحملات. ولا نجد شخصا لا يرغب في أن يشاركه أولاده في إقامة ملكه فحين نتحدث عن السلطان خريبط نجد أنه كان " يريد من أبنائه أن يكبروا بسرعة و أن يساهموا في إقامة هذا الملك. لكي يكونوا مثله حريصين عليه وقادرين على استعادته إذا غدر الدهر ودارت الأيام" (223). فليس أحد في الدنيا أحرص من الأولاد على ملك أبيهم. ولكننا ذكرنا بأن للسلطان خريبط مستشارا ليس فقط غريبا بل أجنبي. هو هاملتون الذي أثبت للسلطان قبل أن يتخذه مستشارا كفاءة عالية وقدرة على مواجهة المعضلات والصعاب مع السلطان، لذا لم يكن هنالك من حائل يمنعه من أن يكون إلى جانب السلطان.

أما بعد أن ظهر النفط فقد أصبح السلطان مجبرا على إدخال الغرب إلى قصره وحياته حتى تستوي الأمور. فلم يعد يستطيع الاكتفاء بمن حوله وربما هذا من أثر المال الزائد. فهو يعطي القوة، والقوة تأتي من كثرة الحماية وهي تعني الكثير من الأفراد المحيطين بالسلطان. لذا لم يعد من المهم نوع هؤلاء الأشخاص بل الأهم الكم والكثرة. إن المال جعل هؤلاء السلاطين ينظرون لهذه الطبقة المهمة نظرة ازدراء فلم يعودوا بشرا كراما محترمين، بل تغيرت النظرة إليهم وهم وإن كانوا بشرا، فمهما كانت قيمة الواحد منهم ليسوا سوى عبيد وخدم من أجل مصلحة هؤلاء الساسة.

حين يتحدث بطل السقوط إلى أعلى عن نظرة هؤلاء السلاطين إلى السفراء؛ سفراء بلادهم الذين ينظر إليهم في الدول الأخرى نظرة احترام وتقدير لان " أي دولة تحترم نفسها لا تختار سفراءها إلا من خيرة أبنائها معدنا وقالبا وثقافة ليقوم بتمثيلها خير قيام وهي بالتالي تجلهم وتمنحهم من الاحترام ما هو حق لهم(224). وهؤلاء السلاطين لا ينظرون للسفراء على أكثر من أنهم خدم " فالسفير خادم يتكلم لغة أجنبية ويقبض راتبا لينوب عن أسياده بقول كلمة نعم أو كلمة لا..." (225).

والأمر نفسه ينطبق على الطبيب الذي لا يعدو أن يكون محتالا أو مستجديا، وهو في نظر السلاطين وأبنائهم إنسان أوصله فقره أو حبه للمال إلى "درك يجعله يقتل

من عمره السنين الطوال كي يقال له بالنهاية تعال إلى هنا وافقأ هذه الدملة في مقعدي وخذ أجرك كذا "(226).

هل يغير المال النفس الإنسانية إلى هذا الحد. ولكن لا نستطيع أن نضع اللوم كله على هذا السلطان أو ذاك لهذا المستوى الذي وصلت له تلك الطبقة ذات القيمة فيما مضى، ولكنها رخصت مع كثرة المال؛ ولأنه كما قال فراس: " هل تعتقد أن الأطباء الذين يقطعون ألوف الأميال ليأتوا إلى بلادنا رغم حرها وصعوبة العيش فيها يأتون محبة بنا و بالإنسانية. أم حبا لمالنا وثروتنا ؟ "(227). كان هذا جواب أحد من وُجِّه لهم سؤال عن سبب هذه النظرة المأساوية لهؤلاء الأشخاص الذين فقدوا احترامهم مع ظهور المال.

ربما يحس السلطان بهذا الطمع لذا يرى أن الشخص يبيع نفسه من اجل المال يبيع ضميره لحفنة نقود. لذا فهو لا يستحق الاحترام. وربما أنها نظرة بعضهم و آخرون يرون أنهم بمالهم يستطيعون السيطرة على أيّ كان وإن اعتبر بالسابق قبل هذه الثروة النفطية، صعبا ولكن أذلّه المال وأهانه العوز؛ فيجب استغلاله دون احترام أو كرامة وجدت قبل الآن، وهم في حالة ضعف، مضطرون ومحتاجون إلى النفاق والكذب لتحقيق المصالح.

3.4طبقة الوافدين

هذه هي الطبقة الهامة التي أحس الناس بوجودها فقط منذ تدفق هذا السائل المهم. ألم تكن هذه الفئة موجودة في بلاد البدو وبلاد النفط قبل ظهوره، وهل كان لهذه الفئة تأثير في حياة المجتمع؟ وما الممارسات التي تعرّضت لها في أرض النفط؟ لم يكن في تلك البلاد ما يلفت النظر حتى يأتيها الوافدون من البلاد الأخرى. حتى إن أهلها لم يكونوا يعيشون عيشة اكتفاء حتى يأتي من يشاركهم رزقهم. هاملتون الذي ورد ذكره سابقا هو نموذج لهؤلاء الذين استوطنوا بهذه البلاد رغم هذه الأوضاع المتواضعة التي يعيشها أهلها. فليس له أي مطمع مادي. جاء مع الحملة البريطانية إلى تلك البلاد. لم

يأت في البداية إلا ليتعرف إلى هذه البلاد فهو مستشرق. ومنذ أن وصل بدأ بالبحث والتنقيب والدراسة. " وذكر الذين رافقوه أن الصاحب قضى وقتا طويلا في نبش تلة الذيب القريبة من المخيم الذي أقامه واستخرج منه أصناما. و أشاروا إلى ثلاثة جمال كانت تحمل هذه الأصنام "(228).

هؤلاء المستشرقون وُجِدوا في بلاد العرب منذ زمن بعيد وهم لا يكفون عن البحث والنبش! جاء هاملتون لا لوجود النفط وإن وجد فهو لا يهتم. هو يهتم بتاريخ وحضارة وماض، وبشر يريد الكتابة عنهم، ودراستهم دراسة دقيقة وإن تطلب ذلك أن يُسْلم كعادة بعض المستشرقين، وأن يتصف بالصفات والعادات الغريبة الخاصة بهؤلاء القوم. وهذا إن حصل فما هو إلا ليرتاح له هؤلاء القوم ولتسهل له المهمة. ولكن سرعان ما يتحول هذا الأجنبي إلى خادم لمصالح دولته الأم بريطانيا، فيبشّر بالأفكار الغربية ويقدّم النصائح للأمير "فنر"، مثلا، فيقرأ له فقرات من كتاب "الأمير" لميكافيلي الذي يلفت الانتباه إلى أن الغاية تبرر الوسيلة؛ ومن هنا لجأ الأمير" فنر" إلى القتل والتعذيب للوصول إلى غاياته.

هؤلاء هم الوافدون قبل النفط. فهل هذا حالهم بعد النفط وبعد تدفق السائل العجيب الذي غير حال مجموعة كبيرة من البشر؟ وإذا نظرنا إلى " رجال في الشمس"، مثلا، فإن السؤال الذي يبرز هو: ما الذي دفع بثلاث شخصيات من شخصيات الرواية بالمجيء والتفكير بالوفادة على هذه الدولة؟ أليس النفط والمال زيادة على ما يعانيه الفلسطيني من احتلال وقمع هو الذي دفعهم إلى ذلك؟ لقد كانت الكويت حلما. يسمع كلمة الكويت يتصورها ويتخيلها إنها بلاد الخير والنفط والمال ومن يذهب إلى هناك يعود بأكياس محملة من النقود. هذا ما قيل لهم ! لقد ترك هؤلاء الثلاثة أرضهم ووطنهم و أي وطن، وطن بحاجة لهم ليدافعوا عنه " فلسطين " المسلوبة من أجل المال من أجل النفط. تقول منال حسن فتح الباب عن مصير هؤلاء الثلاثة الذين تركوا أرضهم ليذهبوا لبلاد النفط: " أن الانقطاع عن المواجهة والغياب عن الأرض جريمة في ذاتها عقابها هو الحصار – الموت الذي يعد نتيجة حتمية من جهة أخرى

للفرار من المواجهة. كما حدث لأبطال رجال في الشمس"(229). لقد هرب هؤلاء الثلاثة من مواجهة الحياة القاسية إلى حياة ظنوا أنها الأفضل فكانت النتيجة الموت تركوا المعاناة وذهبوا إلى الموت. وأين ماتوا في الكويت في مكان الحلم. وليس هذا فقط وإنما في مكان إلقاء القمامة، حتى أنهم لم يدفنوا في قبر كغيرهم. يقول الياس خوري في تعليقه على الرواية أثناء الحديث عن القضية الفلسطينية: " ظاهرة الهرب الفلسطيني إلى الكويت وبرمزها في سبيل تعميم دلالتها. الصحراء هي العطش والموت والقيظ الشديد الماء بعيد والبحر لا وجود له إلا خلف الذين يهربون من ذاكرتهم – شط العرب أو على مقاعد الدراسة – مكان الهرب هو مدخل إلى الموت الفلسطيني المجاني ومكون في الصحراء ثم انزواء أمام القمامة في الكويت" (230). هؤلاء الثلاثة مثال على وافد لم يصل. وافد مات على الطريق. مات في خزان كويتي نقله من الصحراء إلى الكويت لكنه لم يصل، هذا الوافد الهارب من بلاده حلم بما يحلم به غيره في بلاد وفيرة المال وعمل يدر الربح وعيشة بعيدة عن الحرب والقتال، ثم ـــكما أسلفناـــ كان العقاب الموت ؟ وكان هذا المصير واضحا من عنوان الرواية الشمس رمز اللهب والحرارة ثم الموت. إن اختيار هؤلاء الثلاثة " لوجهة بعيدة في أقصى الصحراء " الكويت " للبحث عن الخلاص والمال واختيار الطريق الصحراوي بين البصرة والكويت، والشمس الصحراوية القاتلة للإجهاز المباشر على الفلسطينيين بمساعدة... تبدو غير متعمدة من موظفي الحدود الكويتيين الذين تربطهم بقايا بداوتهم بالصحراء" (231).

وبعيدا عن هؤلاء الثلاثة، ما الذي أتى بصبحي المحملجي في" مدن الملح" إلى موران وغيرها من المدن؟ هل أتى مستكشفا مثل هاملتون أم أنه جاء ساعيا وراء مصالحه ووراء المال والنفط والغنى؟ لو لم يظهر النفط هل كان سيظهر صبحي المحملجي وزوجته و أهل بيته رغم ورود سيرة الدكتور صبحي في باب الاغتراب والازدواجية إلا أني أكرر ذكره ليس لإعادة النظر بوجود اغتراب أو ازدواجية عند الرجل لكن لبيان السبب الرئيسي من وجوده فهو شاميّ، طبيب لا يمت بصلة لهذه

البلاد. كيف ظهر فجأة ولماذا ؟ ما نظرته إلى هؤلاء الناس الذين يسكنون موران وحران والمدن النفطية ؟ هل يرى فيهم سمات البشرية أم أنهم كما استعرض في رأسه:

"هنا في موران يمكن أن يجد (الإنسان) المال ويمكن أن يعيش، لكن الناس هنا نوع أخر إنهم اقرب ما يكونون إلى حيوانات الصحراء: مملؤون بالحراشف والقسوة والخشونة جلودهم سميكة، وأعماقهم بعيدة لا تدرك (232)."

إذن ما جاء به إلا المال رغم هذه النظرة المحتقرة لهؤلاء البشر. حتى أنهم في نظره ليسوا بشرا. هم حيوانات وأي حيوانات بغيضة إلا أنه مستعد للتحمل من أجل ماذا ؟ من أجل المال. موران بلاد النفط فقط وكل ما عدا ذلك تخلف وجهل. وقد تحدى في تغير موران: " يتذكر الحكيم أنه قال بصوت عال وهو يبتسم من بين أسنانه:

أنا وموران.... وهذا الزمان "(233).

لأنهم في نظره كما وصفهم هاني الراهب في رواية "رسمت خطا في الرمال" على لسان " ربيع أحمد ": نحن شعب أنشأه الإنجليز قال: بضعة آلاف تلملموا من عشائر الصحراء. رسم الإنجليز حولهم خطا بقلم رصاص. وقال: كونوا نفطية جيم. يتكلم المثقفون عن صدمة الحداثة . و أنا أتكلم عن صدمة القدم. عن بدو زادهم النفط بداوة ".(234)

هكذا يراهم الدكتور صبحي، وليس الدكتور فقط إنما حتى الإنجليزي الذي رسم لهذا البدوي حدوده لم ير أنه يضع أكثر من شيك ليحصر تلك الحيوانات. مجيء الدكتور جلب معه أفرادا آخرين. فبعد أن استقر هذا الطبيب في أرض النفط أحضر مجموعة من الرجال ليكونوا عونا له وكان أبرزهم سكرتير السلطان الشخصي ومجموعة أخرى؛ لكي تعمّ الفائدة الجميع. وهؤلاء الوافدون استفادوا وربما أكثر مما استفاد أهل الأرض أنفسهم. وهذا السبب الذي جعل كثيرين يتركون بلادهم ليسافروا إلى تلك البلاد الخيرة؛ لأنهم سمعوا عن أشخاص ذهبوا واستفادوا. فكان يجب عليهم أن يجدوا حلا ليلحقوا بالركب.

لن أطيل مع الحكيم فلقد سبق و أن تعرضنا له لكن المهم هو تبيان سبب قدوم هذا الغريب إلى أرض موران. لقد كان ممن أتى مع الحكيم محمد عيد. لا نعرف عنه شيئا سوى أنه غريب لازم الحكيم في حران ثم رافقه إلى موران. وبعد محمد عيد يأتي أخوه بدري ويتضح لنا أنه من طرابلس. كان محمد عيد سببا رئيسيا في حضوره إلى هذه البلاد (235).

أما أهم الوافدين الذين قدموا إلى هذه الأراضي النفطية أخوان من ناحية الأم. حسني كركر وسعيد الأسطة. وهما من الشام. حاولا التجارة هنالك ولكنهما فشلا، حاولا تغيير المكان لكنهما لم يختارا بلاد النفط بل اختارا عمّانَ لتكون مكان التجارة الجديدة لكنه مكان كسابقه. وربما يظهر لنا أن العيب ليس بالمكان بقدر ما هو بالأشخاص أنفسهم. فتجارتهم بعمان رغم أنها بلاد غير نفطية إلا أن تجارتهم لاقت نجاحا لكنه في النهاية انتهى بالإفلاس لإهمال شخصي أو هكذا ادعيا. لكنهما في النهاية لم يجدا مكانا يقيما فيه تجارتهما خيرا من تلك البلاد المعطاءة، بلاد النفط: حران النقطة الأولى، ثم انتقلا إلى موران. فهل كان لهما دور في المجتمع الجديد ؟ هل كانا سيختاران موران لو كانت على حالها القديم؟

لقد تنبأ الحكيم في لحظة من اللحظات إلى هذا الوضع وتوقع أن يستوطن أناس كثيرون هذا المكان. أناس يحضرون من أماكن شتى يقول: " لو جاء الإنسان على موران قبل سنين لما استطاع أن يعيش، لما وجد فيها ما يعوض التعب والشقاء لا شغل و لا مال ولا بشر"(236). وهو ما كان يعلمه الجميع سواء أهل الأرض أم من أتوا إليها، ثم يضيف وهو المهم: " ومن يأتي بعد سنين لن يجد مكانا أو شيئا سوف يكون الناس أكثر من التراب وأشره من الذباب "(237).

ما الذي سيزيد من هؤلاء البشر ؟ ولماذا الشره ؟ أهو الخوف من انتهاء هذا النبع وطمع كل شخص في الحصول على أكبر قدر ممكن من هذا الفيض ؟

لنعد إلى أخوين وافدين ليس لهما علاقة بهذه الأرض، لكن منذ أن وصلا أقاما الشركات والمشاريع، فهما قاما بما لم يقم به أهل المنطقة، أرادا استغلال هذا المال الوفير بما فيه مصلحتهما الخاصة، دون النظر إلى تنمية المجتمع الذي احتضنهم.
مع مرور الوقت زادت أعمال الشركات ثم ازداد عدد هذه الشركات وازداد العمل وازداد البذخ والإنفاق. إن من يأتي هذه البلاد من الخارج لا يفكر تفكير أهلها فالمرء يأتي وفي ذهنه هم واحد هو المال، المال الوفير بأي الطرق والأساليب.

4.4 الطبقة العاملة المضطهدة

إن بناء المجتمع يحتاج إلى عقول وأيدي عاملة ماهرة تستطيع المساهمة في نهوض البلد المضيف ورقيّه، ولكن ذلك لا يكفي؛ لأن المطلوب من أهل البلد نفسه المشاركة في التطوير ومسايرة التقدم العلمي: " إن منيفا يؤمن بأن تطور المجتمع يأتي من العناصر الكامنة داخل المجتمع ويرى أنه ينبغي أن يتحول المجتمع العربي من مستقبل مستهلك إلى منتج، فالمال يجب أن يوظف في الإنتاج والتصنيع الذي يمكن أن يكون بديلا لنضوب النفط، ويعمل، بناء على ذلك، على رقي المجتمع وتقدمه "(238).
هل فعلا يقوم الوافد بتطوير المجتمع إذا لم يكن أبناء البلد أنفسهم هم المتحكمين بثروتهم وبخيرهم ؟ هل هذا حاصل إذا كان أقصى ما يستطيع الوصول إليه ابن البلد العملَ في آبار النفط لا أكثر ؟. هل تستطيع الفئة الوافدة أن تفعل ذلك بحق؟ ولا سيّما إذا كانت أهم الوظائف المتحكمة بالنفط هي وظائف لأجانب جاءوا ليسيطروا على هذه الموارد الجديدة ؟

كانت الطبقة العاملة قبل النفط تعمل في وظائف معروفة. كانوا إما تجارا أو يعملون في سوق الحلال أو في الزراعة. وهي المجالات المعروفة للبدو، حتى يسترزقوا. وكان اعتماد البدو على القوافل اعتمادا كبيرا فهي مصدر أساسي في الرزق (239). أما عندما جاء النفط فلم يعد هذا العمل يجدي نفعا. فلم تعد التجارة مناسبة ولم يعد للزراعة مجال أصبح المجال الوحيد للعمل هو النفط آبار النفط.

وليست بالمهمة السهلة. بل السعيد من استطاع الحصول على وظيفة أيا كانت عند تلك الآبار ومهما كان نوع العمل.

ويصور منيف أحوال هؤلاء العمال الذين تجمعوا من مناطق شتى للعمل في حقول النفط بقوله: " أما الرجال الذين تجمعوا لا يعرف من أين في البيوت الخشبية والخيام فقد كانوا خليطا عجيبا من البشر لا يشبهون أيا من الذين يمكن أن يلتقي بهم الإنسان ؟(240). فلماذا هذا الوصف ؟ ماذا تغير في هؤلاء الرجال ؟ ما هي الحياة الجديدة التي يعيشونها حتى يظهروا بهذه الصورة ؟

هؤلاء العمال بالتأكيد لم يعيشوا حياة طبيعية ولا يمارسون إنسانيّتهم، محرومون من أبسط الحقوق، حتى مجرد ماء نظيف لم يستطيعوا الحصول عليه: " بصمت مشوا اقتربوا من براميل الماء. كانت الأرض هناك زلقة مليئة بالمياه الراكدة وكانت رائحة المكان كريهة أما حين لامست المياه وجوههم فقد أحسوا أن لها طعما غير مستساغ ربما نتيجة الصدأ أو نتيجة إضافة مواد غريبة"(241). ولعلّ هذه الظروف جعلت مشاركتهم في تنمية المجتمع المضيف قليلة أو معدومة في بدايات تدفق الثروة النفطية. وربما كان الأجنبي هو السببَ الرئيسيَّ في هذا القمع والاستبداد إلا إن ذلك لا يعني عدم مساعدة ابن البلد لذلك الأجنبي، فابن الراشد كان من أكثر من ساعد الأجانب على السيطرة على هؤلاء العمال " وتقدم التيه نماذج من التعسف الأجنبي والقمع الذي يمارسه ابن الراشد: فقد مات مرزان وجن أخوه هاجم، وتراكمت الاضطهادات، فقتل مفضي الجدعان وأخيرا طردت الشركة الأمريكية ثلاثة وعشرين عاملا"(242).

ويبدو أن ابن البلد يساعد الأجنبي على قمع ابن بلده من أجل المال وهو يقدم لنا نموذج الشخص الذي استفاد أكثر من هؤلاء العمال من الثروة الجديدة. استطاع ابن الراشد كسب الثقة ليرتفع عن مستوى هؤلاء العمال إلى مستوى المسؤول عنهم. مما يعني أن الناس أو هذه الطبقة قسمت إلى قسمين أو فئتين " فئة من الناس وظفت للعمل في وظائف الدولة العليا وهؤلاء استفادوا من الثروة البترولية على شكل رواتب" (243). وفئة مسحوقة وهي فئة العمال المضطهدين.

لقد كان للوافدين دور بارز في خدمة المرافق النفطية، ولكنهم لم يحصلوا على حقوقهم: " مما أدى إلى ردة فعل قوية فكسر العمال بوابة المعسكر ومزقوا الملفات" (244). كانت هذه بداية المقاومة. صحيح أنها " جاءت عفوية يعوزها الوعي الطبقي العميق والتنظيم النقابي الجماعي" (245)، " إلا أنها " تعبير عن بداية الإحساس بالظلم الذي يقع على جماعة أو طبقة " (246). "لقد ولّد الإحساس بالظلم قناعات عند هؤلاء العمال أنهم يعملون للأمريكي والسلطة و أن ما يتقاضونه لا يتكافأ مع ما يبذلونه. فالأجور التي تدفع لهم لم تكن تكفي لتلبية الحاجات الضرورية وذلك لارتفاع الأسعار"(247). وهذا هو جوهر الموضوع هم يعملون لفئتين هما الأكثر استفادة من كل هذا العمل. الأمريكي الذي بدأ النبش عن النفط، ثم السلطة التي ساعدت وبشكل فعال الفئةَ الأولى للحصول على مرادها.

كانوا يقولون " إن فلانا لم يعد من الكويت لأنه مات قتلته ضربة شمس. كان يغرس معوله في الأرض حين سقط فوقه وفوقها " (248). إنّ هذا العامل الذي مات من ضربة شمس في أرض الكويت يعد مثالا على ما يلاقيه الوافدون من شقاء. أهذه قيمة هؤلاء العمال أجاءوا ليموتوا؟ لقد وصفت معاناة هؤلاء الناس بأساليب شعرية مؤثرة، يقول فيها صلاح صالح في تعليقه على صحراء" رجال في الشمس":

" وربما كان تشبيه صحراء العمل الكويتية بالمقلاة التي تتقن ترويض الغائصين فيها إلى حدود تغير طبقتهم الجوهرية من أجمل التشابيه وأدقها في النثر العربي المعاصر حين يتحول الغائصون من كائنات حية إلى قطع خالية من الحياة جاهزة للمضغ و الالتهام. وهؤلاء لا يغوصون في المقلاة بسهولة وبمجرد أن يصبحوا راغبين في ذلك فهناك أولاً هذه الرحلة الصعبة التي يتحول معها الهاربون إلى كلاب وهم يبحثون عن نقطة ماء واحدة يغسلون بها ألسنتهم المشققة (249).

يمكن القول إن الثورة النفطية أفرزت شرائح اجتماعية متمايزة أكثر من إفرازها طبقات اجتماعية مميزة. أفرزت في التركيبة الاجتماعية الجديدة القلة التي تهيمن: الشيوخ والسلاطين والمواطن الأصلي الذي شارك في الثروة وفق مقاييس قبلية،

والمواطن عن طريق الجنسية، والوافد العربي والوافد الأجنبي. وكانت العلاقة بين هذه الشرائح ــ كما رأينا علاقة تنافس لا علاقة صراع (250).

إن الروايات التي نُوقشت تشي بأن الناس يفتقرون إلى الوعي الطبقي العميــق، وإذا كان ثمة صراع فإنه باهت لم يصل إلى حدّ الحتمية في انتصار طبقة على أخرى، لأنه أخفق في إحداث تغييرات اجتماعية حادة في البنى الثقافية وإنما اقتصر على المسائل المادية التي أُدخلت إلى المجتمعات النفطية. ولا ينكر القارئ لهذه الروايات أن هناك كثيرا من مظاهر التكنولوجيا، وتحسين الظروف المادية للإنسان العربي، فضلاً عــن ازدهار العمران وشق الطرق، واستيراد وسائل الاتصال الحديثة. ومع ذلك فإن هــذه الروايات ترى أن الطبقية المفتقرة إلى الوعي لم تمكن الإنسان العربي من اســتيعاب المفردات المادية، أو تغيير كثير من المستَقِرّات السلبية، ولم تستطع أن تهزّ النظــام القبلي الأبوي الذي يتحكم في حياة العرب على نحو يذكر ــ كما تؤكد رواية الراهب ورواية حجار ــ بحياة القرون الوسطى. إن هؤلاء الكتاب يرون أن التعلــيم ونــشر الوعي بين الناس هي الوسائل المثلى للحاق بعصر العلم والتكنولوجيا. إن المظــاهر التكنولوجية مسّت الحياة العربية من الخارج، وجاء التقدم التكنولوجي ــ كما يرى عبد الإله الرحيل ــ أسرع من قدرة العربي على الوعي به (251).

الفصل الخامس

المرأة وتأثير النفط

احتلت المرأة مكانا بارزا في الروايات العربية، فظهرت بأكثر من صورة، وظهرت في مجتمعات عدة: مجتمع مدني، وريفي، وبدوي، واحتلت مكان الصدارة في أول رواية عربية بالمعنى الفنيّ "زينب " فسميت الرواية باسم امرأة. وقد اهتم عدد من الكتاب الروائيين بالمرأة، وحاولوا إظهار النقائض وعرض النماذج. فهذا الطيب صالح يعرض في موسم الهجرة إلى الشمال مجموعة نماذج للمرأة، امرأة متعلمة مثقفة تقاوم، لا تقبل بما لا تريده، وامرأة لا تعرف إلا أنها جسد يخدم رغبة الرجال وبمقدار ازدياد جمال هذا الجسد يزداد حب الرجل له وهي سعيدة بذلك، وامرأة تبذل نفسها لتربية ولدها وقرة عينها. وأخرى أجنبية وربما وجدت التقارب مع المرأة العربية في بعض المسالك.....الخ. كما نرى أنها احتلت مساحة غير قليلة عند يوسف إدريس في مجموعة من رواياته.... كالنداهة والعيب والحرام، إلى غير ذلك من الكتاب الذين عرضوا لقضية المرأة.

لكن رواياتنا لم يكن همها عرض هذه القضية وبالأصح لم تشكل المرأة سواء قبل النفط أو بعده هاجسا ملحّا على الكتاب، بيد أن هذه الروايات اهتمت بالمرأة بالقدر الذي تحركت فيه ضمن الظروف التي خلقها هؤلاء الكتّاب. بل إن بعض الروايات جعلت المرأة محرّكة للأحداث، وأحيانا كانت سببا رئيسا في نموّ الأحداث وتطوّر الحبكات، وسيكون الاعتماد على رواية" مدن الملح" كبيرا؛ لوجود إشارات كثيرة أدّت إلى بروز دور المرأة أو إلى غياب هذا الدور، وإلى جانبها تقف رواية السقوط إلى أعلى وهي تعرض مجموعة نماذج لنساء تأثرن بوجود النفط، سواء أكان هذا التأثر سلبا أم إيجابا؛ فهي رواية مهمة في هذا المجال. وسأعتمد على رواية نوال السعداوي – الحبّ في زمن النفط – وهي رواية تهدف إلى عرض صورة المرأة بعد النفط، وبيان أثر البترول على وجود المرأة. ماذا أفادها ؟ أو بالأصح كيف شكل حياتها ؟ هل أثر في تكوينها الثقافي ووضعها الاجتماعي، أم أبقاها على ما كانت عليه؟

لقد امتازت المرأة البدوية في القدم أو ما قبل النفط بصفات وُسِمَت بها. امتازت بالبداوة المطلقة، بالانقياد وراء الرجل، باستلاب الإرادة وقلة العمل في ميادين تخرج عن نطاق العائلة والمجتمع الضيق. وهذه الصفات ظهرت لنا في رواية منيف "مدن الملح"؛ إذ قدّمت بعض الأمثلة التي تمثل امرأة منقادة مسلوبة الإرادة. جاءت إلى الدنيا لكي يراها السلطان ويتزوجها. "وقد رأينا أن المرأة تشكل هما كبيرا لدى السلطان والأمراء وإذا كان خريبط يود لأبنائه أن يتزوجوا بغية الإنجاب والإكثار من الذرية، والبحث عن الأنساب والعلاقات مع القبائل التي تقوي مركزه، فإن "خزعل"، كان دائم البحث عن المتعة "(252). هذا هو وضع بعض النماذج النسوية، همّ ليس لذاتها وليس لأهميتها، هم لأنها مصدر النسل والإكثار، فهي همّ من حيث العدد.

لم يستطع أحد إلا ما ندر فهم المرأة وخصوصيتها. فللمرأة خصوصية وطبيعة يجب أن تفهم و أن تقدر. يماهي منيف بين الأرض/ الصحراء والمرأة، يقول:

"الصحراء، كالمرأة، بمقدار ما تبدو هادئة، بسيطة، لينة وجميلة فإنها بحاجة إلى الفهم والتعاطف، لأن لها وجوها لا حصر لها حين تغضب، أو تجن تبدو وكأن ليس لها علاقة بمكانتها من قبل. وهي في الليل غيرها في النهار، وفي الشتاء تختلف عن الصيف، وعن باقي الفصول. إنها أكثر من ذلك، إنها هي ذاتها لا تشبه نفسها أبدا. تتغير كل لحظة. تتكون في كل لحظة، عالم في مرحلة التكوين المستمر" (253).

لو فهم كل رجل هذه الطبيعة لاحترمت المرأة أكثر، ولو وصل كل رجل إلى هذه النتيجة لأتقن فن التعامل مع المرأة. ولكن هذا الرأي ما جاء إلا على لسان أجنبي، على لسان هاملتون ولم نره على لسان أي شخصية عربية. لكن وبالرغم مما سبق ظهر في تلك الفترة من الزمن امرأة سميت فيما بعد المرأة القيادية، امرأة امتازت بصفات لم يتميز بها الرجال وأثبتت من خلالها أن لها قدرة قد تفوق الرجال في القيادة والإدارة، ومن أمثلتها: وضحة الحمد زوجة متعب الهذال التي عانت الأمرين، وذاقت الويل قبل النفط وبعده. إلا أنها قبل النفط كانت أكثر إكراما و أكثر قيمة فقد كان لها رأي تقوله حتى و إن لم يطلب منها أحد ذلك إذا كان لديها كلام لا تجد مانعا من قوله. كانت

وغير عاملة، لكن كان لها رأيها الذي يؤخذ به، كان لها كلمة مسموعة، وكان الرجال يعودون إليها في شؤون كثيرة من حياتهم.

من أهم الأمثلة على المرأة القيادية وفي قصر السلطان نفسه "أمي زهوة" – أو المسماة "الشيخة"– هذه المرأة التي أثبتت وجودها وفرضت رأيها حتى على السلطان نفسه:

"أمي زهوة أو الشيخة، شخصية خطيرة في موران، وهي كذلك بنظر الناس جميعا، ربما لأنها أقوى من في قصر الروض، يتحدث عنها الصبية ويجاريهم الصغار، نقلا عن أمهاتهم أو عمن هم أكبر سنا، أو كما يصورها لهم خيالهم"(257).

وعلى الرغم من عدم معرفة صلة القرابة الحقيقية ما بين الشيخة والسلطان واختلاف الروايات في تلك القرابة أو الصلة إلا أنها أثبتت مكانة لا يستطيع أحد أن ينكرها، حتى جعلت بعض الرجال يتجاوزون بالكلام عن "الشيخة " فقال أحدهم :

"والله لو كان عندها لحية، بطول الإصبع، ما كان غيرها صار سلطان "(258).

وكأن الرجولة تتجسد بذلك وهو ما منعها من تولي السلطة، أما عن القدرة فعقلها يتيح لها تولي القيادة والحكم، وحينها يرد أحدهم على ذلك الكلام :

"وهي بدون ذاك راكبة ومخيلة "(259). أي أنها فرضت نفسها على الرجال قبل النساء والكبار قبل الصغار دون أن تنبس شفتا أي منهم باعتراض: "و إذا كانت عادة البدو ألا يذكروا النساء إلا ذكرا سريعا عابرا، فإن الشيخة كسرت هذه العادة واحتلت في ذاكرة الرجال و أحاديثهم حيّزا كبيرا"(260). إذن عادة البدو– من جانبهم بوصفهم رجالا – ألا يتطرقوا إلى الحديث عن المرأة أو يذكروها إلا إذا كان الموضوع يتعلق بالجنس، عندها ربما أتى الحديث عن المرأة عرضا، فكما يقول هاملتون : "والغريب في أمر الشرقيين أنهم مفتونون بالحديث عن الجنس إلى أقصى حد. وربما أكثر من ممارسته. لا أريد أن أزعم أنهم لا يمارسون بالمقدار الكافي، أو أن الحرمان الطويل يجعلهم هكذا.... إن الرجال الذين يعرفون كيف يتحدثون في هذا الموضوع يتمتعون

بمنزلة تفوق غيرهم "(261). يقدرون الجنس ويقدرون من يتحدث عنه لكنهم لا يقدرون المرأة وهي الأهم.

أعود للحديث عن "الشيخة" التي فرضت سلطتها وهيمنتها حتى على السلطان خريبط وانتقل التأثير إلى السلطان خزعل، كانت تقف في وجه أي قرار لا ترى فيه المصلحة، ولا ضير إن قالت : "لن يكون" في وجه السلطان:

"لكن أمي زهوة، الشيخة، وقفت بشراسة الذئب الجريح ضد هذا الزواج، وقالت بوضوح شديد : لن يكون "(262). هكذا وببساطة "لن يكون "عارضت الزواج ولم يستطع حتى السلطان أن يناقش هذا الرفض، صحيح أنها عللت هذا الرفض فيما بعد، وأقنعت السلطان، إلا أن كلمتها هي الكلمة النافذة حتى ولو لم تعلّل هذا الرفض. امرأة تفرض رأيها على أهل الرأي ويكون صوتها أعلى من صوت السلطان نفسه. ماذا يراد بعد ذلك ؟ امرأة ما قبل النفط لها مكانة وقيمة رغم ما قيل عن تخلف المرأة في تلك الفترة.

كان للزوجة في تلك الفترة تأثير واضح، فهذا منير ابن السلطان خريبط ما أن تزوج حتى ظهرت عليه فروق في السلوك والتصرف والمزاج."وبعد أن تزوج أصبح أكثر ليونة، وأكثر استعدادا للفهم ..... إنه الآن شخص آخر. أقل تجهما، محب للحديث، وإنتاجه أفضل بكثير من قبل"(263).

تستطيع الزوجة وبطريقتها الخاصة التأثير فيمن حولها سواء أكان سلبا أم إيجابا إلا أن تأثيرها يبدو أشدّ على زوجها. لكن رغم ذلك نعرف أن من تقاليد هؤلاء البدو كثرة الزواج، واحدة وثانية و أكثر خصوصا العائلة الحاكمة التي تؤمن بكثرة الزواج ليزيد النسل والذرية. يقول هاملتون: "خاصة وأن لدى العائلة في التراث من هذا المجال ما يجعل الزواج بواحدة ضربا من المستحيل "(264).

لو أن المرأة وصلت إلى قناعة بقدرتها فلا توجد مشاكل. لكن إذا وقفت المرأة في وجه المرأة عندها تتعقد الأمور وتكثر المشاكل. تقول الشيخة وهي مثال القيادة "أمنا

حواء، طلعت آدم من الجنة. وحريم اليوم راح يجرن أمة الثقلين إلى الجحيم وما عاد ينحزر عليهن "(265).

إذا كان هذا قول المرأة فلا يلام الرجل مهما قال، إذا كانت المرأة مقتنعة أن حواء هي سبب إخراج آدم من الجنة فلا ضير أن حقد عليها الرجال لهذه التهمة، لكننا نعود ونقول: إن هذه معتقدات ترسخت في ذهن الرجل والمرأة قبله مهما كانت المرأة، فهذا ما استقر في وعيها منذ الصغر وسار معها في حياتها.

" فضة"، مثال آخر لامرأة فرضت نفسها قبل النفط وهي "سيدة القصر ". استطاعت هذه السيدة من خلال أساليب خاصة فرض نفسها. صحيح أنها ليست الأولى لكن الزوجة السابقة لها لم تنجب إلا البنات لذا لم تنل المكانة اللازمة أما "فضة" التي أنجبت ثلاثة ذكور على التوالي، كانت لها مكانة خاصة فهي أم الذكور وليس البنات.

والسلطان نفسه الذي قالت عنه الشيخة أنه لا يفرق بين أبنائه وكلهم سواء كأسنان المشط "قيل أنه لم يتردد في حمل البنتين ومداعبتهما، كما أجزل للأمهات العطايا، خلافا لما عرف عنه في السابق "(266).

كيف اختلف عما عرف عنه في السابق ؟ أيعني ذلك أنه لم يحمل واحدة من بناته في يوم من الأيام ولم يداعبها فقط لأنها بنت ولا تلزمه، وأنه أجزل العطاء للأمهات هذه المرة وفي السابق كان لا يأبه بهذه المرأة التي أنجبت له، فقط لأن المولود أنثى؟

نعود ونقول هذا حال المرأة قبل النفط ظهرت بأكثر من شكل، امرأة منقادة وامرأة قيادية، امرأة تدافع عن المرأة وامرأة من أكبر أعداء المرأة. أفكار وعادات وتقاليد تحكمت في حياتها. ورغم هذا الوضع إلا أننا رأينا المرأة المسيطرة المهيمنة، والزوجة المؤثرة ذات الرأي والمشورة على زوجها، والمرأة الواعية لما يدور من حولها رغم قلة تعليمها وإدراكها لواقعها.

ظهر النفط ماذا تغير على وضع المرأة ؟ هل أدت هذه الثروة إلى تحسين في وضع المرأة ؟ أي تغيير طرأ على المرأة ؟ هل حقا أخذت حقها و أصبحت لها مكانة وأخذت كل حقوقها ؟ تأرجح وضع المرأة عند بعض الكتّاب، فمنهم من صوّرها متاعا يباع

ويُشترى، ومنهم من جعل لها دورا بارزا في الحياة الإنسانية. وحتى في الرواية الواحدة يختلف وضع المرأة باختلاف الظروف. في "السقوط إلى أعلى" تصبح محظية السلطان، في ظل النظام الاقتصادي الجديد، أم الأمراء التي تشارك في إدارة شؤون الدولة من حجرتها، وذلك بتوجيه أبنائها وتقديم النصح لهم. يصبح هلال ابنها الذي يجيد الإنجليزية – سفيراً لبلاده في فرنسا، ويصبح شيخ القبيلة رئيسا للدولة. أما الأمراء الذين كانوا يدينون له بالولاء المطلق فيصبحون مراكز قوى تدبّر المؤامرات وتخطط للانقلاب الذي يعزل بموجبه السلطان وينفى إلى أوروبا، بعد أن يُطاح بنظام حكمه بمساعدة من إحدى بناته التي كشفت المكيدة التي دبرها للتخلص منهم فسبقوه هم. هذه الأميرة لها في ظل النظام الجديد حقوق وخدم وجوار، وتصرف لها مخصصات شهرية توهب بأمر السلطان، ويوقفها عندما يريد معاقبتها. ويكافئها السلطان الجديد بزيادة مخصصاتها لدورها في الانقلاب على أبيها. فالمرأة هنا لها دور سياسي، ولها ذمّة مالية مستقلة، وهذا تحوّل لافت.

ولعل من اللافت أيضا في حياة الأميرات، ظهور التنافس بينهنّ في المظاهر، واللهو غير البريء والعلاقات الجنسية المحرمة، والغيرة والدسائس وشرب الخمر، تقول قطر الندى:" إني أعرف هؤلاء القوم حق المعرفة... جميعهم سواء... لا يعرفون سوى الجنس والمال، يحاول الرجل منهم الجري وراء ما يتيسر له من النساء... ولا غرابة أن تقبل نساؤهم مضاجعة من يتيسر لهن" (267). والمرأة في هذا المجتمع أداة للهو والجنس من قبل الأمراء، ولم تتغير النظرة إليها بعد عصر النفط إلا بمقدار تحركها هي؛ الأَمَةُ جسد، والمرأة عند الأمير جسد، وكلتاهما أداة متعة لا فرق أيا كان موقعها وصيفة أو عشيقة أو زوجة أو صديقة، الفرق الوحيد أنه أصبح قادرا على السفر آلاف الكيلوميترات ليصل إليها غير مكتف بما عنده.

وبالمقابل تُقدّم الأميرة امرأة ذات شهوة عارمة تسعى إلى الرجال وتخون حتى السلطان مع أخيه، وتخون زوجة الأمير زوجها مع غيره، عالم مليء بالإباحية والخيانة، وبالغيرة والجنس، وتبدو فيه الحفلات النسائية المستحدثة مظهرا جديدا من مظاهر ما

بعد النفط، فرصة للتباهي، واستعراض ما غلا ثمنه من المجوهرات والأزياء مع كل ما فيها من مظاهر البذخ ونظرات الحسد والتآمر والوشاية.

أما في رواية الراهب فتصل المرأة إلى مستوى متدنٍّ من الناحيــة الأخلاقيــة، ويرجعنا الكاتب إلى عصر الجواري؛ فالمرأة تعاني من الظلم والاحتقار، ويكون دورها تلبية رغبات الرجل، وتجاهر الرواية بهذه المسألة ولا تخفي الحديث عن تجارة الرقيق الأبيض، تباع وتشترى في عصر " البترودولار"، لذا يكون مطلبها الأساسيّ أن تكون إنسانة، أن تعامل لا لجسدها ولكن لروحها ودورها فــي الحيــاة، أن تعــرف الحــب والجمال، لا أن تقتصر قيمتها على اللذة الحسية. والمفارقة في هذه الروايات تكمن في أنه في الوقت الذي ينبغي على النفط أن يجلب معه التعليم للجنسين، فإن المرأة تتحوّل إلى سبية وظلت تعيش في عصر الحريم. تقول الساردة:" بل نحن سبايا نعيش عــصر الحريم والتكايا. انطلقنا. الحجاب الذي أغلق على وجوهنا عالما فتح لنا عوالم. صرنا كلنا ملكات سريّات يجبن أماكن سريّة في أزمنة سرّية، مع رجال سريين" (268).

أما نوال السعداوي فقد عبرت تعبيرا واضحا عن هذه القضية مــن خــلال روايتها "الحب في زمن النفط"، صحيح أنها تظهر في مواقفَ كثيرة انحيازها الكبيــر للمرأة وهذه رؤيتها، إلا أنها تجسد واقعا مريرا أليما لصورة المرأة بعد النفط، واقعــا يرينا أن كل ما طرأ على المرأة هو تحولها إلى جَسَد، جسد فقط، وهو جسد قذر رغم نظافته، قذر بالنفط والسواد، جسد يباع ويشترى بالنفط: "لم يحدث أن خرجت امرأة ولم تعد. كان يمكن للرجل أن يخرج ولا يعود سبع سنين. ومن بعدها يحــق للزوجــة أن تتحرر منه "(269). امرأة تحاول الخروج عن الواقع. وتحاول المرأة الخروج من هذا الظلام إلى الشمس ولكن ذلك أمر نادر لا يتوقع حدوثه. فالمرأة وإن غاب زوجهــا لا تتحرر إلا بعد سبع سنين. يذهب العمر وهي تنتظر التحرر. "لم يكن في حركتها شيء يثير الريبة، إلا ذلك الحماس غير المألوف بين النساء. وهي تتطلع نحو الشمس، بعينيها العاريتين من أي غطاء. وشيء يطل من حقيبتها يشبه رأس أزميل "(270). تتطلع نحو

الحرية، نحو الشمس والضياء. امرأة عاملة انتقدت على عملها، وكأنّ العمل مقصور على الرجال دون النساء، فهي إن عملت فليست امرأة طبيعية، لماذا ؟

" غالبا ما يشير انشغال المرأة بأمور خارج البيت إلى مرض نفسي" (271).

ربما يقول أحدهم إن هذا الكلام مبالغ فيه خصوصا في زمن كهذا، زمن النفط والتحضر، إلا أن نوال السعداوي لا ترى ذلك. إن النفط وهو رمز التقدم والحضارة عامة في بلادنا يرتبط بأقصى درجات التخلف والتأخر عن ركب الحضارة وخصوصا في مجال المرأة: " تراخت قبضتها حول حزام الحقيقة. وربما لا يكون الثبات هو المطلوب. تركب نفسها للريح، حركة لم يألفها جسمها أول الأمر بدا ثقيلا ثم أصبح أقل وزنا. أغمضت عينيها فيما يشبه الاستسلام، إحساس جديد بدأ يتسرب إليها على استحياء"(272).

وهذا هرب من الواقع، على شكل محاولة للتحرر، ولأنها لم تتعود على ذلك فلم يألف جسمها هذه الحركة، لم يألف إلا القيد، لذا بدأ ثقيلا على الأصل الذي تعوده لكنه مع الانطلاق بدأ يخف شيئا فشيئا. ولماذا يتسرب هذا الإحساس على استحياء ؟ لماذا الاستحياء ؟ بالتأكيد لأنه غريب من نوعه، إحساس لم تألفه في يوم من الأيام، وهي غير واثقة من قدرتها على تقبل هذا الإحساس لذا جاء على استحياء، فهو جديد وفريد زمن النفط زمن التقدم، ورغم ذلك لا يزال صوت المرأة لا يتجاوز الهمس خوفا من أن يرتفع على صوت الرجل، وهذا أمر مقدّس يفترض وجود الرجل وغياب المرأة "ظلت أصوات النساء منخفضة لا تزيد عن الهمس ارتفعت أصوات الرجال"(273).

يحق للرجل أن يرفع صوته كما يحب لكن صوت المرأة عوْرة حتى لو كان في حقها، حتى لو كانت تطالب بذاتها وكيانها، كل ذلك لأنها " أنثى "وكأن هذه الصفة عيب أو جريمة يعاقب عليها القانون بالحرمان.

حتى الدين يفهم بطريقة مشوّهة عند الحديث عن المرأة وحقوقها، فكل شيء يقسّم "للذكر مثل حظ الأنثيين " لماذا هذه القسمة؟ شرعها الله في الميراث لأسباب

واضحة، لكن لِمَ لمْ يقسّم غير ذلك بتلك الطريقة ؟ ما السبب والتعليل غير أنها أنثى يسهل استلاب شخصيتها ونزع صفة الإنسانية عنها. ونقرأ في الرواية:

– سكبت في حلقه أربع قطرات. أغمض عينه طويلا ثم فتحها، لعق شفته السفلى بطرف لسانه (274).

– أهو ماء ؟.

–لا نوع مقطر من النفط يروي أكثر من الماء، ويطهر الأمعاء افتحي فمك (275).

هذه هي الحضارة، هذا هو التقدم، هذا هو المال، إنه أفضل من الماء، فهذا زمن النفط وليس زمن الماء. انتهى نصيب الرجل لكن ما نصيب المرأة من تلك الحضارة، من هذا النفط؟

"سكب في فمها القطرة الأولى ثم الثانية، أرادت القطرة الثالثة والرابعة، تشبثت بالزجاجة تقبض عليها بأصابعها الخمس لكنه شدها منها وخبأها.

"– لك نقطتان فقط حسب القانون" (276).

للذكر مثل حظ الأنثيين، حتى في الحياة، في الهواء وفي العيش وفي العلاج. ورغم الزمن الذي تعيشه، زمن التقدم والوعي، زمن أخذت فيه المرأة حقها، فلا يزال في مجتمعنا هنالك من يحرم الفتاة من نصيبها في الميراث، بحجة أنها عند الزواج أخذت معها ما يكفي لذا عليها التنازل عن نصيبها لإخوتها الذكور، وهذه ظاهرة موجودة في مجتمعنا الحالي . مجتمع ذكوري مهما برزت فيه المرأة فإنّ الرجل غير مقتنع بأنها إنسانة أصلا، لها ما للرجل وعليها ما عليه إلا ما فرض الشرع:

– لا أفهم لماذا لا تطلق سراحي ؟

– سراحك ؟

– نعم، فأنا مثلك إنسانة ولي حقوق.

– ماذا ؟

– حقوق المرأة ألا تعرفها ؟!

- هذا شيء لم نسمع به وعندنا قانون حقوق الإنسان فقط (277)

الرجل من يعيق المرأة عن التقدم، والرجل هو من يريدها في هذا التخلف، لأنه يخاف من تقدمها فهو لا يريدها حتى أن تفكر، لأنها إن فكرت عرفت الحقيقة و إذا عرفتها تحررت، وإذا تحررت انجزت وعندها ستنافسه في موقعه وهذا ما لا يريده الرجل. "يتحدد وضع المرأة العربية منذ لحظة ولادتها في الواقع العربي وفي إطاره المرجعي الفكري، بأن المرأة كانت ضعيفة جسما وعقلا "(278). وهذا الضعف كما يقول د. بدران "يقرر على أنه ضعف جوهري وليس ضعفا عرضيا، وعليه تؤسس محددات دورها الاجتماعي وموقعها البشري "الأمومة" بمفهومها التوالدي الرعوي "(279).

أنا أتكلم عن مجتمع نفطي وليس عن مجتمع ما قبل النفط، فهذا الكلام موجود في مجتمعات نفطية بدوية في أصلها لكنها لم تغير من تفكيرها وعاداتها ونظراتها، حتى بعد النفط كل ما تغير المال، زاد المال وبقي العقل كما هو.

يقول سمير عبده في كتابه المرأة العربية بين التخلف والتحرر، في سياق مختلف، عن رغبة المرأة بأن تصبح رجلا:

"وليس هذا الأمر صفة مرضية في المرأة، بل إنه نابع عن وعيها بطبيعة وعلاقات القوى في المجتمع الذي نعيش فيه، إنها تعي أن الذكورة تعني إمكانية القوة والسيطرة والتحقق، وأن الأنوثة مرتبطة بالدونية والهزيمة، أن حلم المرأة بأن تكون رجلا يرجع لأسباب اجتماعية بحتة" (280).

وما زلت أتحدث عن مجتمع نفطي، تحلم فيه المرأة بأن تصبح رجلا.

لنعد إلى الروايات ولنرَ كيف ظهرت هذه المرأة في مجتمع النفط عند عبد الرحمن منيف في خماسيته، هل تغير حالها عن حال سابقتها ؟ هل اختلفت عن المرأة عند نوال السعداوي ؟ قبل النفط ظهرت لنا امرأة قيادية لها صوت مسموع حتى على الرجال، لكننا لم نستطع أنْ نرى تلك المرأة بعد النفط إلا من أمثلة قليلة لم ترق إلى مستوى الشيخة "زهوة": "لما أصبح الأمير خزعل سلطانا كانت المرأة السادسة عشرة

قد مرت من تحته، وكان لا يزال يبحث عن السر الإلهي في العلاقـــة بـين الرجـل والمرأة"(281). ستَّ عشرة امرأة كي يكتشف السر، وهذا فقط عندما تولى السلطة فهو لا يبحث عن المرأة بل يبحث عن سبب النشوة التي يحسّ بها معها، يبحث عن اللـذة وعن الجنس هذه هي المرأة فلا يوجد امرأة مختلفة كلها تحمل نفس السر، إذ إنّ كـلّ النساء متشابهات ولا ضير من كثرتهنّ.

لكن تلك المرأة ليس لديها أي مانع فهي كما ذكرنا قد تشربت فكر الذكوريـة و آمنت به، فلا مانع عندها أن تكون الأولى أو السادسة عشرة، ولا مانع من أن تتزوج المرأةُ زوجها بحجة أنه لو تزوج سيعود لها في النهاية، أو أنها استفادت من الناحيـة المادية من وراء هذا الزواج "وحين طلب من زوجته الأولى "عدلة" أن تجهزها، لأنـه سيبني بها الليلة و أبعد تقدير الليلة التي بعدها وكانت قد انتقلت إلى عدله مسألة تزويجه مرة بعد أخرى"(282). لكنها مع ذلك كانت تقول لنفسها "الرجال يعرفون أشياء كثيرة في هذه الحياة ولكنهم لا يعرفون المرأة، أنهم يتصورونها كما يتمنون أو كما يحلمـون والغريب أنهم غير قادرين على أن يروها على حقيقتها رغم أنها تكون عاريـة بـين أيديهم "(283).

هذا هو الواقع الفني: الرجل لا يرى المرأة إلا كما يتصورها ولا يتجاوز خياله رؤيتها إلا وهي عارية وإن كانت غير ذلك فهو لا يراها، فهذه المرأة "عدلة " رغم تساهلها في زواج زوجها وتيسره له، إلا أنا نجد لها دورا فعليا في حياة الـسلطان فهـي الأولـى المحببة والمقربة من السلطان لذا نجد أن لها دورا بارزا في أحداث "المنبت "وربما هي السبب الرئيسي وراء طلاق سلمى من السلطان وطرد السلطان لوالد سلمى "الحكيم ". وهذا لا لشيء إلا لأنها لم تختر هذه الزوجة للسلطان، فلـم يكـن هـذا اختيارهـا أو بموافقتها، بل هو اختيار السلطان وحده بتسهيل من الحكيم وزوجته العائد للدافع المادي إلا أن هذا لم يرض عدله ولم تتعود عليه، ثم ربما وجد سبب أقوى ألا وهـو غيـرة المرأة من المرأة. نعم ربما كانت غيرة عدلة من سلمى أهم سبب لكرهها لها، فـسلمى ليست كأي زوجة من زوجات السلطان، فهي تختلف عن الجميع، جميع الزوجات مهما

اختلفت مقومات الجمال بينهن فإنهن يعدن إلى أصول واحدة وإلى مجتمع واحد، إلا أن هذه الدخيلة الجديدة من أصول مختلفة فهي شامية وجميلة، وجمالها يختلف عن النساء الأخريات للسلطان بما فيهن عدلة، فهي فوق جمالها الخاص صغيرة، شقراء تمتاز بدلع سافر، لذا خافت منها عدلة، ولكن لا يقف ضد المرأة مثل المرأة فإن أرادت تحطيمها فعلت، خصوصا مع فتاة مثل سلمى ضعيفة الشخصية خجولة مترددة. هذه عدلة نموذج لامرأة نفطية تفكر بالمال والبذخ حتى لو كان على حساب أمورها الخاصة، ومن جهة أخرى سلمى الضعيفة المنكرة التي لم يسألها أحد عن رأيها في زواجها من السلطان، بل تقرر الزواج وتزوجت على غفلة منها، فقط لأن أباها و أمها رأيا أن في هذا الزواج مصلحة لها.

وعلى الرغم من أن سلمى مثال لفتاة تستطيع القول بأنها متعلمة في وقت يندر وجـود امرأة متعلمة، و رغم أنها نموذج لامرأة نفطية ولدت في زمن النفط، إلا أنها لم توجد إلا من أجل جسدها، أجل كانت لعبة رخيصة كأنها قطعة أرض تباع وتشترى حسب المصلحة. وعندما طُلّقت من السلطان وتغيرت حالها وتبدلت عيشتها كان كل ما قالـه الأب :

" هذا الزواج كان من أوله غلط "(284).

هكذا وبكل بساطة باع بضاعته وحين ردت إليه لم ير إلا أن هذا البيع بيع خطأ، وماذا كانت النتيجة ؟ ماتت سلمى. ماتت بعد كل تلك المعاناة. كانت هي الوحيدة الخاسرة في تلك اللعبة. خسرت المال والحرية والطفولة ثم أخيرا خسرت حياتها.

هذا مثال لامرأة دفعت ثمن هذه الثورة، لم تستطع أن تـستفيد لأن المجتمـع الجديـد حاصرها وقتلها. هذه سلمى، فماذا عن نموذج آخر مختلف هو أم سلمى "وداد زوجة صبحي المحملجي "؟

جاءت هذه المرأة إلى موران برغبة من زوجها لتبقى إلى جانبـه. لـم تؤخـذ بالوضع في البداية. فالشكل العام لهذه المدينة لم يعجبها؛ لأنه بالتأكيد يختلف عما كانت تعيشه من قبل في الشام "بدت موران في عيني وداد، وهي تنظر إليها من الشباك في

الصباح الباكر مدينة منفرة، فالبيوت متلاصقة واطئة، متتابعة و كأنها سلسلة لا نهاية لها من كتل طينية وأشجار النخيل القليلة المتباعدة ميتة الخضرة "(285).

ومن المؤكّد أن هذا المكان مختلف عما هو عليه الشام، وأنها وضعت في ذهنها قبل حضورها أن العيشة مختلفة في هذه البلاد. لكن المهم من هي تلك المرأة وما حالها ؟ كيف ينظر لها زوجها وكيف تنظر هي لنفسها ؟

عاشت وداد حياة كفاف، فلم يكن أهلها من الأغنياء أو أصحاب رؤوس الأموال، لا بل وفوق ذلك عاشت في بيت ليس فيه حديث غير قصص الموت والموتى؛ لذا كان أمل وداد في التخلص من هذه الحياة كبيرا وطموحها إلى حياة أخرى طموحا عاليا وليس هناك أفضل من رجل طيب لديه تطلعات مستقبلية لينقذها من هذه الحياة المتواضعة (286).

تقول وداد:"رائحة الموتى عالقة بثياب أبي، وجو الآخرة لا يفارق أمي "(287).

لذا كانت دائما تحاول الهرب من شبح الموت المتأصل في تلك العائلة. ذهبت إلى بيت الزوج، وما الذي وجدته ؟ وجدت زوجا لا يسأل أو يستشير، بل يقرر ثم ينفذ قراراته وحده: "وداد التي تعودت على الموافقة وتعودت أكثر من ذلك على هذا الرجل الذي يفكر وحده ويتخذ القرارات دون أن يقول لماذا ؟"(288). هذه نموذج الزوجة التي غاب عنها زوجها مدة طويلة لا يسأل و لا يأبه أيضا بها "قضى الحكيم سنوات في حران، بعيدا عن زوجته و أولاده، لا يأتيهم إلا مرة في السنة، وبعض الأحيان مرتين "(289).

إن كثرة الضغط لا تولد إلا الانفجار، ازداد الضغط على وداد وازداد إنكار زوجها لها، فما كان منها إلا أن بحثت عن بدائل لهذا الإنكار لشخصها ولجسدها الذي يثور عليها بين الحين والأخر يطالب ويصرخ عليها، ولأن شخصية هذه المرأة ــ كما تكشف "الأخدود" ــ ربما نستطيع القول إنها شخصية ضعيفة لا تمتلك الإرادة، لذا انساقت وراء جسدها وتركت له العنان ليطالب. ولم تتركه حتى أرضته و أشبعته، وإن كان هذا الإشباع حرام، من شخص ائتمنه زوجها عليها، "خلال هذه السنوات، لم يتغير

الحكيم وحده تغيرت وداد أيضا، فالنظرة المسالمة لكل ما حولها وتلك الطاعـــة...... تغيرت كلها "(290).

ضاعت وداد؛ يزداد التقدم وتزداد ضياعا، قالت وهي مع راتب في فراش واحد: "الآن ولدت من جديد!" اعتبرت هذا الضياع ولادة "واستمرت هذه الولادة وكبرت ما دامـت الشركة الشرقية للاستيراد والتصدير والنقل تستمر وتكبر"(291).

هكذا بدت المرأة: تقدم وحضارة واستيراد وتصدير يقابله سقوط للمـــرأة وضـــياع بسبب التهميش:

"ولما سافر الحكيم بدأت تطير وتحلق، وعندما تدفقت الأموال أصبحت امرأة مـــن نوع مختلف "(292). المال يغير، أرادها زوجها أن تبقى على حالها رغم أنه لم يبـــق على حاله. أرادها كما هي ولم يبق هو كما هو، يحق له ذلك و لا يحق لها ذلك.

لم يدافع النص عن هذه المرأة؛ فليست هذه طريقة تفرض فيها نفسها. لم يكن جسد المرأة يوما طريقا لفرض الذات إلا في عقول المرضى الذين لا يرون أصلا في المرأة إلا الجسد. تلك المرأة اتخذت الطريق الخاطئ، طريقا لم ترفع من قيمتها لا بل جعلتها أكثر انحطاطا، حتى منيف نفسه رأى أن ودادا ضحية من ضحايا البترول، ومن ضحايا التقدم والتوسع، والنص هنا يدين الرجل والمرأة معاً.

حتى تتقدم المرأة يجب أن يبدأ التغير من المرأة نفسها: " في الأســـواق والمجتمعـــات والفنادق رأيت نساء كثيرات، بنظرة واحدة أدركنا كلنا أننا امرأة واحدة، بجملة واحدة عرفنا أننا كلنا مشكلة واحدة، وأننا نبحث عن رجل واحد عديد التحسرات "(293).

هكذا يجب أن تكون المرأة أن تتحد مع المرأة وترى المشكلة مع مثيلاتها، ولا تقف ضد المرأة، فالمرأة ليست جسدا يباع ويشترى، وكما اقتبسنا سابقا: "سأخلع أمامـــك نقـــابي الحقيقي ولوجهي و أصفادي وملابسي أجد نفسي امرأة لا فرجا – أجد رجلا يعطينـــي حبا، لا مضاجعة يمتلك بئرا من الجَمَال، لا بئرا من الانتعاظات والنفط" (294).

هذه هي علاقة الرجل بالمرأة فلا يوجد امرأة تحب أن تكون مجرد جسد يخلو من المشاعر والأحاسيس، "قلت بنات القرن العشرين، عصر الحرية والحب والجمال، فأجبن بصوت واحد، بل نحن سبايا نعيش في عصر الحريم والتكايا "(295).

هذا هو ما يمسك المرأة ويجرها إلى الخلف. وليس كما يقول بعض الكتاب هذا الحجاب الذي يحجب المرأة عن المجتمع الحالي وكأن الحجاب هو العائق الوحيد الذي يمنع المرأة من أن تأخذ حقها أو أن المرأة المتخلية عنه تتمتع بكامل حقوقها فقط لأنها لم تسير وراء هذا التخلف الذي يدعى حجاب، وقد فوجئت بمجموعة كتب ليست بالقليلة تتحدث عن المرأة، حاولت أن أتخذها مراجع، لكن كثيرا منها يجمع على أن الحجاب من أهم عوامل تخلف المرأة. ولم يذكر كتاب واحد أن المرأة السافرة تتمتع بجميع حقوقها.

لا أعرف المشكلة بين أن ترتدي المرأة الحجاب وفي نفس الوقت تتمتع بحقوقها وحريتها. إنا نتحدث عن أن أهم مظاهر تراجع المرأة هو رؤيتها كجسد وليس كإنسان وهنا أليس الحجاب مساعدا للمرأة حتى تغير هذه النظرة وينظر لها كإنسان؟ إن لم تظهر مفاتنها وتعرض بضاعتها، أليس المنطق أن تصبح إنسانية أكثر منها وهي تتاجر بمفاتنها؟

حتى نوال السعداوي ترى أن الحجاب مظهر من مظاهر التخلف التي يجب التخلي عنها :

" أنت لست بقرة عمياء تدور في ساقية ؟ ينبغي أن يكون من حقك أن تري ما حولك. أليس كذلك ؟ أم أنك اقترفت جريمة في الخفاء فلم يعد في مقدورك أن تظهري أمام أهل القرية بوجهك المكشوف ؟"(296).

إذا تحجبت المرأة فهي بقرة ولن تستطيع رؤية شيئا مما حولها، وكأن الحجاب رباط أسود لا تستطيع العين النظر من خلاله:

– أهناك سبب يدعوك لكل هذا التخفي.

– ليس هناك أي سبب يدعوني لكشف وجهي.

- تستطيعين على الأقل رؤية العالم (297).

هذه وجهة نظر نوال السعداوي ولست هنا كي أناقش الآراء حول ارتداء الحجاب أو حتى لمناقشة تحجب المرأة. لذا نعود إلى الروايات لنرى المرأة بعد النفط كيف أصبحت وماذا استفادت ؟

أما عند وليد الحجار فإن روايته تعتمد على العنصر النسائي بقوة. كشف من خلالها وضع المرأة بعد النفط وقدم نماذج لنساء ما بعد النفط. أول امرأة سأتحدث عنها، لها دور في تسير الأحداث ولو بشكل قليل أم الأمير هلال التي توضح وضع المرأة قبل النفط حين تقول لولدها عن أسلوب تعامل والده السلطان مع نسائه: "رحم الله أباك الذي كان إن رفعنا الصوت أذاقنا لسع السوط أو زج بنا في المخدع خمسة عشر يوما دون أن يسمح لنا بالكلام مع أحد"(298). ولعل الكاتب يرغب في أن يتساءل كما يتساءل معه القارئ أهذه معاملة لإنسانة أم أنها معاملة لحيوان؟ لا يحبس ولا يضرب بالسوط إلا الحيوان. ولماذا كل هذا؟ لأن صوتها ارتفع؛ لذا فقد أجرمت وتستحق كل هذه العقوبة، ولكن وكما ذكرنا ربما أن هذه المعاملة وجدت في تلك الطبقات المتحكمة، ولكنها تندر كلما نزلنا بالطبقة وربما يعود ذلك إلى قلة ثقة تلك الطبقة بالمرأة لكثرة تنقّلها ومحاولة الخروج عن تقاليد معينة. لذا نرى أن الثقة تهتزّ وتقلّ "في لحظة لوعة مباغتة التفت إليّ وهتف: "كيف يمكن لرجل أن يثق بامرأة ؟ قلت: عندما يمكن أن يراها إنسانة لا متاعا "(299). لكن هذه المرأة رغم ذلك لها مكانتها ومهابتها بين أهل القصر فهي الزوجة المفضلة عند السلطان قبل وفاته لذا كان لها تأثيرها الخاص ويظهر ذلك بأنها تفقد بعض تلك المميزات بمجرد وفاة السلطان وكأن مصيرها ارتبط بمصيره.

وجد في السقوط الكثير من الشخصيات النسائية التي أثرت في أحداث الرواية وظهرت بعد النفط أهمها الأختان ميساء وقطر الندى التي ورد ذكرها في فصل سابق ثم زوجة فراس التي تزوجها رغم قلة جمالها وهو ابن الأجانب الذي أحب عندهم الكثيرات، وعاد بعدها إلى بلده وتزوج امرأة كما يصفها صاحبه: "كان واضحا أنها

تكبره، قصيرة القامة بدينة، ولئن كانت حرارة الكبت تضفي على عينيها بريق الجنس فقد كانت ذات بشرة داكنة غير متجانسة، معقوفة الأنف طويلته "(300).

رغم كل هذه الصفات تزوجها فراس ولا يتجلّى السبب الذي جعله يختار هـذه المرأة بالذات، والذي أغراه بها، هل فعلا يبدو الشكل غير مهم عنده؟ وأنه ينظر إلـى ذات المرأة قبل شكلها ؟ هل يعقل أنه يفكر بتلك الطريقة التي يندر حـدوثها عنـد أي رجل؟ هذه الزوجة أيضا كما ورد ذكرها قبل الآن وظهر دورها البارز فـي إظهـار صورة لامرأة مستعدة لبذل أي شيء مقابل أن تستفيد من المال. حتى تبيـع زوجهـا وتذهب مع غيره إذا كان في ذلك مصلحتها، وهنا نرى مثالا جديدا لامرأة غيرتها الحياة النفطية فأصبحت مثل الرجل في تفكيرها، تريد المال والمال فقط، فكما يريد الرجـل المال ولا يأبه للمرأة وحالها، أصبحت المرأة تريد المال ولا تفكر بالرجل، إلا أن الفرق أن المرأة يبقى لديها بعض القيود التي تمنعها من تنفيذ كل ما تريد بينما هذه القيود غير موجودة عند الرجل.

نعود إلى ميساء وقطر الندى، هاتان الفتاتان لا تختلفان كثيرا عن وداد إلا أن ودادا كان محركها الرئيس جسدها، وهو الذي قادها إلى الخطأ، أما هاتان الفتاتان فإن المال هو المحرك الرئيس لهما، قادهما إلى الخطأ والفسق وإلى الزنا. ولم نر أي محاسبة أو تأنيب ضمير، كما ظهر عند وداد في بعض الفترات. ولن أطيل فـي ذكـر صـورة الأختين فهي واضحة. وداد مثال لامرأة انساقت وراء هذا العصر وأصبحت تفكر تفكير الرجال. و إن بحثنا في أصل الموضوع نجد أنها كانت مقيدة ومحاصرة من بيت الأب إلى بيت الزوج و أنها تحولت في لحظة من اللحظات إلى لعبة وتسلية ومتاع لا أكثر.

هكذا رأينا وضع المرأة قبل النفط وبعد النفط من خلال مجموعة من الروايـات وهي في أغلبها تجمع على تردي وضع المرأة بعد النفط. تحدثت الروايات عن وضع المرأة وظلمها وضعفها قبل النفط إلا أن الحديث عن جسدها لم يظهر بتلك الـصورة التي ظهرت عند الحديث عن المرأة بعد النفط. مجموعة نماذج رأيتها – نماذج منقادة محاصرة مستسلمة لا تحاول حتى محاولة التحرر، ونماذج أخرى همها التحرر وفـك

القيود لكنها تعاقب على هذه المحاولات مثلما عوقبت المستسلمة المنقادة. وهنالك نماذج أخرى فكت القيد وانطلقت وحاولت التحرر من كلمة رجل، ولكنها سلكت طريقا خاطئا لهذا التحرر؛ فكان مصيرها الضياع والتيه.

خاتمة

عند الحديث عن شكل المجتمع الروائي قبل النفط، يمكن توصيف الموضوع ضمن ثلاثة محاور: الاقتصادي والاجتماعي والسياسي: لقد تركز الاقتصاد قبل النفط على ثلاثة عناصر وهي: الرعي والزراعة والتجارة. كان المجتمع قبل النفط مجتمعاً بدوياً قبلياً وكانت هذه القبائل تعيش حياة بسيطة؛ تسكن بيوت الشعر، وثروتها الوحيدة الإبل والأغنام وطعامها التمر واللبن على مدار السنة.

تعرض بعض الراويات وبأساليب مقتضبة موجزة حياة المجتمع العربي قبل النفط وتعول على الحذف في كثير من الأحيان بيد أن القارئ يستطيع من خلال لجوء بعض الروايات إلى تقديم شخصيات عاشت الفترتين أن يسجل بعض ملامح المجتمع العربي قبل اكتشاف النفط.

نستطيع القول إن هؤلاء البدو لم يكونوا يهتموا بما يتجاوز حدود قوت يومهم، وإن تجاوزوا ذلك فالأمر ينحصر بتأمين الطعام والشراب والملبس وحتى تأمين هذه الأمور لم يكن عن طريق تعامل مالي ونقدي بل على الأغلب تؤمن بطريقة المقايضة ولكن ذلك لا يلغي دور العملة المعدنية في التجارة. أما مهنة الرعي فتعد مهنة من المهن التي كان لها أهمية بارزة بالنسبة لاقتصاد المجتمع الروائي قبل اكتشاف النفط، إن أكثرية سكان ذلك المجتمع يقتنون الإبل وقد تمثل الرعي في تربية الجمال والماشية وغيرها. أما التجارة فانقسمت إلى قسمين:

تجارة داخلية بين أفراد المجتمع البدوي الواحد. فكانت تقام لها بضع دكاكين وقد بنيت بشكل بدائي وبسرعة متناهية وهي عبارة عن غرف صغيرة دون نوافذ، وتكون هذه الدكاكين عامرة مليئة بالبشر والأشياء ويختلط فيها الباعة والمشترون. أما

التجارة الأخرى فهي التجارة الخارجية - تجارة القوافل- هذه القوافل المنتقلة من منطقة إلى أخرى ومن بلد إلى آخر. كانت التجارة أحد أهم المرتكزات التي تقوم عليها معيشة البدو قبل أن يظهر ذلك النفط الأسود ولو أنه استمر بعد ذلك بطرق مختلفة وعلى صعيد أوسع، لكنه في ذلك الوقت كان من أهم أبواب الرزق حيث تنتقل القافلة من مكان إلى مكان تشتري وتبيع في كل منطقة تنزل بها، وتحل عند سكانها وتزداد عملية التبادل.

وإذا ما انتقلنا إلى البعد السياسي فسنرى أن البداوة وأحياناً البدائية موجّهة للبنية السياسية، إذ يستند الحكم إلى التركيبة القبلية التي تعني في الغالب تسلط الفرد وتمركز النفوذ في يده أو من يخولهم بذلك من أولاده وأقاربه. وبإيجاز شديد تشير معظم الروايات إلى مركزية الحكم بيد شيخ القبيلة الذي أصبح يسمى أميراً ثم سلطاناً، ولأن القبائل متعددة ومتنافسة فقد كثر الأمراء ونشبت بينهم الحروب الدامية مع ما رافق ذلك من قيم التآمر والغدر والاستعانة بالأقوياء ولا سيما الأجانب. لقد انعكست البنى السياسية والعيش في أحضان الماضي المتخلف القائم على الاضطهاد والقمع ـ على تشكيل القيم وأنماط السلوك وأظهرت الإنسان العربي كأنه يعيش في قرون التخلف والظلام. ولعل من أبرز القيم الشائعة في فترة ما قبل النفط الإيمان بالغيبيات إلى حد عطّل العقل وحيده وأصبح الدين سلبياً بدلا من أن يكون مصدر إلهام وإبداع، ففي " رسمت خطاً على الرمال " يقتصر فهم القران الكريم على الإيمان بالجن والتداوي بحروف القرآن واستبعاد التداوي بالعلاجات المعروفة. ويضاف إلى ذلك تفشي الأمية وانتشار الجهل والفقر والإيمان بالخرافات، بيد أن قيماً إيجابية شاعت في هذه المجتمعات مثل الكرم والتكافل الاجتماعي والتواصل الإنساني وحب الأرض والانتماء... إلى غير ذلك، كل ذلك كان قبيل اكتشاف النفط، فما الذي حدث عند مجيء الآخرين ؟

استطاع تيمور ومنيف وغيرهما أن يقدما أمثلة كثيرة على ردود الأفعال وكيف أنها انقسمت إلى ثلاثة أقسام: القسم الأول القسم الرافض، وقسم متقبل تماماً. وقسم ثالث

لا مع هؤلاء ولا مع هؤلاء، بل وقف متفرجاً ينتظر أن يرى إلى ماذا ستؤول إليه الأمور. ومع ذلك فإن هذا القسم لم يظل على حياديته فأصبح إما مع مؤيد أو مع معارض. تمّ توضيح ردة فعل كل شخصيه من خلال حديث موجز عن كل شخصيه مع تحليل بسيط لسلوكها وطريقة تفكيرها. وهو ما توضحه الروايات لتستطيع الحكم على كل عمل ينتج عن هذه الشخصية. لقد جاء التركيز في هذا الموضوع على "مدن الملح" ولا سيما " التيه"؛ ففيه ظهر النفط وفيه كان ثمّة وصف للمنطقة قبل النفط وربما أن الاسم وحده دليل أكيد على عظم القضية التي يحملها هذا الجزء. فالتيه ليس ضياعاً فقط وليس فقداناً للطريق حسب، إنما قد يعني فقدان التفكير السليم. فالتائه قد يسير في طريق معروف ولكنه لا يعي ذلك وربما العكس فلا يستطيع أن يقرر أيبقى حيث هو أم يبقى مستمراً في سيره.

ويبدو الاغتراب بوضوح في بحث الإنسان عن إنسانيته، وسعيه للتصالح معها والانسجام في التعايش معها وتشير الروايات إلى ضياع الإنسان واستلاب إنسانيته؛ نتيجة تدفق النفط. أن أفعال الفرد لم تعد تقود إلى نتائج مفيدة تتناسب مع الجهد المبذول. وتعرض النصوص صورة قاتمة لعلاقة الإنسان بالإنسان، وعلاقته بالسلطة، وتلجأ إلى إدانة المجتمع بقواه المختلفة بوصفه سببا لما وصل إليه الفرد من حالات الاستلاب؛ إذ يلجأ الفرد إلى الاستسلام واليأس أكثر من ميله إلى الرفض والتمرّد.

إنّ عدم مواكبة الحياة الاجتماعية للجديد أفضى إلى نتائج خطيرة تركت بصماتها على مشاعر الناس وأحاسيسهم، وقادت بالتالي إلى بروز بعض مظاهر الاغتراب والازدواجية.... إنّ هذه التغيّرات جاءت بسرعة كبيرة لم تستطع النفس البشرية أن تستوعبها بسهولة وتتأقلم معها، ولم يأتِ هذا التغيّر بقدر متساوٍ عند جميع الناس، ولم يكن أسلوب التأثير واحداً عند الجميع؛ فمن هؤلاء الناس من تأقلم وتعايش وانطبع بالجديد كأنه أصل منه، ومنهم من لم يستطع التعايش مع هذا الجديد؛ فعاش بالمقابل حياة اغتراب وعزلة عن الناس، وقد ظهر ذلك من خلال سلوك هؤلاء الأفراد وطريقة تعاملهم مع الآخر وما جلبه معه .

وعندما بدأت ملامح أرض الصحراء تأخذ بالتغير تغير البشر، بدأ الإنسان بالتغير، فكلما تغير معلم من معالم الأرض تغير حاله وكأن المكان المستباح نفسه أصبح مغتربا عن قاطنه الأول؛ لأنه أصبح بحيازة من لا ينتمون إليه أصلاً. لم يعد بعض الناس كالسابق ولم يستطيعوا المقاومة، لم يجدوا نصيراً يساعدهم على منع هذا التغير، لذا بدوا ضعفاء يائسينفمالوا إلى الغربة والاغتراب عن الناس، والاغتراب عن المكان الذي يعيشون فيه. سيطرت عليهم العزلة والوحدة، ولعلّ هذا عينُ ما يطلق عليه" فقدان السيطرة"؛ أي عدم شعور الفرد أن باستطاعته التأثير في المواقف الاجتماعية التي يتفاعل معها، ويعني أيضا عدم القدرة على التأثير في الحياة الإنسانية في خضمّ المستجدات، فيبدو غريبا عن مجتمعه وعن نفسه، فلا هو بالقادر على العودة إلى الماضي الذي بدأت تتغيّر ملامحه المادية، ولا هو بالقادر على التأقلم مع الجديد، لصعوبة استيعابه له من جهة، ولانشداده إلى الماضي وامتلائه بالقيم القديمة التي تراكمت عبر العصور من جهة أخرى.

وينبغي الإشارة إلى أن اتساع الهوّة بين المنشود والمتاح يفضي إلى الاغتراب؛ فما تملكه بعض الشخصيات من قدرات كانت إلى عهد قريب تحقق أهدافها وتكوّن لها منزلة اجتماعية ــ لم يعد مع الطفرة النفطية يكفي لتلبية احتياجاتها، بل يقف التشبّث بهذه القدرات القديمة حجر عثرة أمام تطورها ونموها. والسؤال الذي تثيره الروايات، من بين كثير من الأسئلة، هو فيما يتعلق بهذه المسألة: كيف يتمكن الأمي المتشبث بعاداته وتقاليده أن يقترب من المنشود الذي أتى به الجديد؟ لم تتدرج بعض الشخصيات، كما هو الحال عند الجيل الجديد، في فهم المستورد والدخيل، لم تستطع إمكاناتها من تحقيق طموحاتها، فكيف يتعامل الأمي مع الكتاب والمذياع والسلاح ووسائل الحياة الجديدة... إن كل ذلك يؤدي إلى إخفاقات متتابعة تعمل على تدمير الإنسان ودفعه إلى السقوط. إن ما حدث بعد تفجر الثروة النفطية نقل الناس من حياة البداوة والبساطة إلى عصر التطور التكنولوجي والعلم والمعرفة. وقد استطاع بعض الناس من خلال أبنائهم

وأحفادهم التأقلم مع الجديد، ولكن شريحة أخرى هوتْ في حالات من التأمل والانعزال وانعدام القدرة والتوازن؛ فجاء اغترابها حادّا وسقوطها مدويا.

إنّ ماترصده الروايات يلفت الانتباه إلى انقلاب الموازين وضعف المعايير في توجيه الناس وضبط سلوكهم؛ ويتضح من النصوص الطفرة الهائلة التي مر بها المجتمع النفطي، فبعد الحديث عن المفردات التكنولوجية الغربية المستهلكة التي تكشف عن مدى هامشية المجتمع العربي وسلبيته، تستعاد بعض مظاهر الماضي المتخلف، كما تشير النصوص إلى أن النفط لم يغيّر في البنى الفكرية، بل قدّم لنا شخصيات متردّدة شاكة مفعمة بالتخوف من الآخر وادّعاء الازدراء به في آنٍ معاً.

أما الازدواجية تعني اقتران القيم المعنوية القديمة ومفردات الحضارة الحديثة/ الجمع بين الماضي والحاضر/ ادّعاء المثل النبيلة والتدين واختراقها سلوكا/ الهوة الثقافية الناجمة عن عدم التزامن بين الماديات والميتافيزيائيات/ التجاور المعادي... أن يعيش الإنسان مع الماضي والحاضر ويدمجهما دون أن يمتزجا، فهو تارة للقديم والمبادئ والأصالة، وتارة أخرى كأنه ابن الجديد وولد فيه، مما يخلق نوعا من التناقض، إذْ يتجاور السلبي والإيجابي وتعيش المفردات المفعمة بالمفارقات جنبا إلى جنب. ولعلّ ما احتل مساحة لا بأس بها في النصوص التي بين أيدينا، فيما يتعلق بهذه المسألة، الأمكنة وأنماط الحياة ومجمل الأفكار. إنّ التطور الذي أصاب المنطقة لم يأت ــ كما تصوّره النصوص ــ تدريجيا يتوافق مع قوانين الطبيعة، وإنما كانت المقدمات سريعة، فجاءت النتائج مؤذية لكثير من الناس؛ إن التقدم المادي الذي استهلكه العربي لم يأت نتيجة جهده هو وإنما جاء نتيجة خبرات متراكمة مرّ بها الغرب.

يمكن القول إن الثورة النفطية أفرزت شرائح اجتماعية متمايزة أكثر من إفرازها طبقات اجتماعية مميزة. أفرزت في التركيبة الاجتماعية الجديدة القلة التي تهيمن: الشيوخ والسلاطين، والمواطن الأصلي الذي شارك في الثروة وفق مقاييس قبلية، والمواطن عن طريق الجنسية، والوافد العربي والوافد الأجنبي. وكانت العلاقة بين هذه الشرائح علاقة تنافس لا علاقة صراع.

إن الروايات التي نُوقشت تشي بأن الناس يفتقرون إلى الوعي الطبقي العميــق، وإذا كان ثمة صراع فإنه باهت لم يصل إلى حدّ الحتمية في انتصار طبقة على أخرى، لأنه أخفق في إحداث تغييرات اجتماعية حادة في البنى الثقافية وإنمــا اقتــصر علــى المسائل المادية التي أُدخلت إلى المجتمعات النفطية. ولا ينكر القارئ لهذه الروايات أن هناك كثيرا من مظاهر التكنولوجيا، وتحسين الظروف المادية للإنسان العربي، فضلاً عن ازدهار العمران وشق الطرق، واستيراد وسائل الاتصال الحديثة. ومع ذلك فإن هذه الروايات ترى أن الطبقية المفتقرة إلى الوعي لم تمكن الإنسان العربي مــن اســتيعاب المفردات المادية، أو تغيير كثير من المستَقرَّات السلبية، ولم تستطع أن تهــزّ النظــام القبلي الأبوي الذي يتحكم في حياة العرب على نحو يذكر. إن هؤلاء الكتاب يرون أن التعليم ونشر الوعي بين الناس هي الوسائل المثلى للحاق بعصر العلم والتكنولوجيا وأن المظاهر التكنولوجية مسّت الحياة العربية من الخارج، وجاء التقدم التكنولوجي أسرع من قدرة العربي على الوعي به.

لا يظهر وضع المرأة قبل النفط وبعده اختلافا كبيرا، والروايات في أغلبها تجمع على تردي وضع المرأة بعد النفط. تحدثت الروايات عن وضع المرأة وظلمها وضعفها قبل النفط، إلا أن الحديث عن جسدها لم يظهر بتلك الصورة التي ظهرت عند الحديث عن المرأة بعد النفط. مجموعة نماذج رأيتها – نماذج منقادة محاصــرة مستــسلمة لا تحاول حتى محاولة التحرر، ونماذج أخرى همها التحرر وفك القيود لكنها تعاقب على هذه المحاولات مثلما عوقبت المستسلمة المنقادة. وهنالك نماذج أخــرى فكــت القيــد وانطلقت وحاولت التحرر من كلمة رجل، ولكنها سلكت طريقا خاطئا لهــذا التحــرر؛ فكان مصيرها الضياع والتيه.

24)جميعان ، السابق : 62 ، وانظر 125

25)هاني الراهب ، رسمت خطا في الرمال ، الكنوز الأدبية ، بيروت ، ط1 ، 1999 : 33 .

26)نفسه : 14 .

27)نفسه : 18 .

28)نفسه : 12 .

29)نفسه : 115 .

30)منيف ، تقاسيم الليل والنهار ،ط4 المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، 1992 : 9.

31)نفسه : 9 .

32)نفسه : 9 .

33)نفسه : 9 .

34)نفسه : 10 .

35) نفسه : 13 .

36) نقلا عن حليم بركات ، المجتمع العربي في القرن العشرين ، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1 ، 2000 : 531 .

37)منيف ، تقاسيم الليل والنهار : 15 .

38)نفسه : 18 .

39)نفسه : 30 .

40)نفسه : 60-69 .

41)نفسه : 274-281 .

42)نفسه : 257 .

43)نفسه : 309 .

44)نفسه : 309 .

45)نفسه : 280 .

46)نفسه : 283- 285 .

47)الراهب : 17 - 18 .

48)نفسه : 41- 42 .

49)نفسه: 43 .

50)نفسه : 43 .

51)نفسه : 14 .

52)الراهب :15 .

53)نفسه :15 .

54)نفسه : 16 .

55)نفسه: 20- 21 .

56)نفسه :19 .

57)نفسه : 120 .

58)انظر حول مسألة اللقاء الحضاري:

محمد البارودي. " جدلية الشرق والغرب في الرواية العربية "، م. الفكر، تونس، س3، ع29، 1983 ؛ وس4، ع29، 1984.

-طلال حرب. "البطل الرائي الشرقي والغرب "، م. الآداب، ع9، سبتمبر 1980.

-محمد كامل الخطيب. المغامرة المعقدة: مقدمة في تاريخ العلاقة بين المجتمع العربي والغرب كما يظهرها الفن الروائي، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1976.

نبيل سليمان." التعبير الروائي عن إشكالية اللقاء بالغرب الاشتراكي "، م. المعرفة، دمشق، س24، ع282، 1985.

-فخري صالح. " الرواية العربية والإفريقية: الالتقاء بالغرب ...واكتشاف الهوية الثقافية "، م. الكاتب العربي، دمشق، ع6، 1983.

-شجاع مسلم العاني. الرواية العربية والحضارة الأوروبية، وزارة الثقافة والفنون، بغداد، 1979.

-سالم المعوش. صورة الغرب في الرواية العربية، مؤسسة الرحاب الحديثة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1998، وغيرها.

59) التلخيص: ويسمى أيضا الإجمال، وهو سرد أيام عديدة أو شهور أو سنوات من حياة الشخصية دونما تفصيل للأفعال أو الأقوال وذلك في بضعة أسطر أو فقرات قليلة، انظر: سمير المرزوقي وجميل شاكر، مدخل إلى نظرية القصة تحليلا وتطبيقا، دار الشؤون الثقافية العامة (آفاق عربية)، بغداد، والدار التونسية للنشر، تونس، 1986: 86، ولا يختلف مصطلح الخلاصة عن النص الملخص أو التلخيص حيث يتم سرد وقائع أو أحداث يفترض أنها جرت في مدة زمنية طويلة _ من خلال الاختزال بحيث تكون المساحة النصية قصيرة، انظر: حميد

لحمداني، بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، بيـــروت، ط 2، 1993: 76، وتزفتيان تودوروف، الشعرية، ت: شكري المبخوت ورجـــاء بـــن ســـلامة، دار توبقال، المغرب، 1987: 49. أما الحذف ويسمى أيضا الثغـــرة أو الإســـقاط أو الإضـــمار أو القطع، فيقصد به المرور على فترات زمنية ممتدة أو قصيرة دون سرد ما وقع فيها من أحداث وقد يلجأ السارد عند تجاوز مرحلة من المراحل إلى الإشارة إلى الزمن أو المدة كأن يقال على سبيل المثال: ومضت خمس سنوات، أو: وبعد إحدى عشرة سنة.. وهكذا، انظر: تـــودوروف، الشعرية: 49، وصلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، سلسلة عـــالم المعرفـــة، المجلـــس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، آب، 1997: 304، وسيزا القاسم، بناء الروايـــة،دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1985: 89؛ ويعرف المشهد عادة بأنه الخطـــاب الـــذي يتساوى فيه _ نسبيا _ حجم النص مع زمن المتن أو الحكاية، ويأتي على شكل سرد تتوالى فيه الأفعال بحيث يشعر القارئ بتطور الحدث وتناميه، ويشعر أن النص غطى مدة زمنية مناســـبة. وقد يأخذ المشهد شكل الحوار وهذا الشكل هو الغالب على المشاهد حيث تتساوى أحيانا مساحة النص مع زمن الحكاية؛ ولذلك عرف بعضهم المشهد بأنه المقطع الحواري الـــذي يـــأتي فـــي تضاعيف السرد، فالمشهد يمثل بشكل عام اللحظة التي يكاد يتطابق فيها زمـــن الـــسرد بـــزمن القصة من حيث مدة الاستغراق، مع ملاحظة الصمت أو التكرار، انظر: حميد لحمـــداني: 78 ومدخل إلى نظرية القصة: 90 وعالم الرواية: 52؛ وتودوروف، الشعرية: 49.

60)محمود تيمور، شمروخ، دار الهلال، القاهرة، 1958: 113.

61) نفسه: 181.

62)نفسه: 147.

63)نفسه:37.

64)نفسه:38.

65)نفسه: 97.

66) التيه:70

67)سعد عبد الحسين العتابي ، الملحمية في الرواية العربيــة المعاصــرة، ط١ دار الــشؤون الثقافية العامة بغداد 2001: 91 ، وانظر: يوسف ضمرة، " التقاليد الملحمية في روايــة مدن الملح "، م. *الموقف الأدبي*، ع191 – 192، س16، دمشق، آذار ونيسان، 1987 ؛ و م. *أفكار*، ع92، عمان، تموز – آب، 1989.

68)التيه: 46.

69)نفسه: 89.

70)نفسه: 30.

71)نفسه: 31.

72)نفسه: 45.

73)نفسه: 104-105.

74)محمد الشوابكة، "دلالة المكان في مدن الملح لعبد الرحمن منيف"، أبحاث اليرمــوك، م٩، ع2، 1991: 21.

75)نفسه، ص٣١، وانظر ما نقله عن اعتدال عثمان مقالــة فــي الــشعر ومتغيــرات المرحلة، لعناد غزوان وآخرين، دار الشؤون الثقافية والعامة، "آفاق عربية"، بغــداد، ط1، 1986: 51.

76)التيه: 185.

77)التيه:٨٥.

78)نفسه، ص١٠٢.

79)عبد الرحمن منيف، الكاتب والمنفى– هموم وآفاق الرواية العربيــة، دار الفكــر الجديــد، ١٩٩٢: ٦.

80)العتابي، السابق:١١٧.

81)منيف، التيه:١٠٦.

82)العتابي، السابق:٩١ .

83)نفسه: ٩١.

84)منيف، التيه: ٤٧٩.

85)نفسه: ٤٧٨.

86)نفسه: ٤٧٩.

87)انظر التيه: 579،٥٤5، ٥٤1، ٥٤٤.

88)العتابي، السابق: ٩٣.

89)انظر جسر الشيطان، عبد الحميد جودت السحار، القاهرة، مكتبة مصر (د.ت): 58، وانظر أيضا: 7، 17، 113-114، 141...

90)منيف، الكاتب والمنفى: ٢٢٣.

91)نفسه: ١٩٧.

92)أحمد جاسم الحميدي، البطل الملحمي في روايات عبد الرحمن منيف، ج1، الأهالي للطباعة والنشر، دمشق: 87.

93)التيه: 58.

94)نفسه: 59.

95)نفسه: 61.

96)الحميدي، السابق: 88.

97)التيه: 61.

98)نفسه: 62.

99)الحميدي: 89.

100) التيه: 100.

101) ياسين النصير، إشكالية المكان في النص الأدبي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط1، 1986 : 21.

102) نفسه: 62.

103) نفسه: 111.

104) نفسه: 122.

105) الحميدي: 111.

106) الحلول هو " اتحاد الجسمين بحيث تكون الإشارة إلى أحدهما إشارة إلى الآخر، كحلول ماء الورد في الورد، والحلول الحيّزي كحلول الأجسام في الأحياز، أي الأمكنة"،انظر:

محمد الشوابكة، "الإنسان والطبيعة في رواية "النهايات" لعبد الرحمن منيف، جدلية العلاقة وشعرية الوصف" مجلة المنارة، المجلد 4، العـــدد3، 1999: 342؛ نقــلاً عــن محمــد القاضي، الأرض في شعر المقاومة الفلسطينية، الدار العربية للكتــاب، ليبيــا– تــونس، 1982: 121.

107) جبرا إبراهيم جبرا، " الحبّ والموت والطبيعة في النهايات"، مقالــة فــي ينــابيع الرؤيــا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1979: 39.

108) الشوابكة، دلالة المكان : 35، ويقول عبد الإله الرحيل: " ومنيف ليس ضد العلم ولكنه ضد(الطريقة) التي تسلل بها هذا العلم إلى وادي العيون وبشره، فاستهلك إنسانيّتهم وأشاع التفرقة بينهم..."، انظر: " قراء في مدن الملح"، مجلة المعرفة، عدد275،س23، دمشق، كانون الثاني، 1985: 174.

109) التيه: 85.

110) نفسه: 89.

111) نفسه: 87.

112) نفسه: 87.

113) نفسه: 89.

114) نفسه: 48.

115) نفسه: 48.

116) نفسه: 129.

117) نفسه: 130.

118) نفسه: 135.

119) يوسف ضمرة، التقاليد الملحمية في رواية مدن الملح ، الموقــف الأدبــي،ع191–192 ، دمشق،آذار ونيسان ،1987: 34.

120) قدح من نفط: 130.

121) نفسه: 49، 63.

122) نفسه: 51.

123) نفسه: 124.

124) نفسه: 110

125) نفسه: 101، 102.

126) نفسه: 106.

127) الراهب: 179.

128) أحمد الخشاب، التفكير الاجتماعي دراسة تكاملية للنظريـة الاجتماعيـة ،دار النهـضة العربية ،بيروت ، 1981: 70

129) منيف ، التيه :٧.

130) نفسه :٩.

131) محمد شوابكة ، دلالة المكان في مدن الملح لعبد الرحمن منيف :٢٩.

132) نفسه :٣٠.

133) السيد علي شتا، الاغتراب من منظور علم الاجتماع، عالم الكتب(بيروت)، 1984: 23.

134) حسن السيد، الاغتراب في الدراما المصرية المعاصرة بين النظرية والتطبيـق(1960-1969)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1986: 11، وانظر يحيى العبـد الله، الاغتراب، دراسة تحليلية لشخصيات الطاهر بن جلون الروائيـة، المؤسـسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 2005: 22-25.

135) محمد الشوابكة، " الغربة والاغتراب في شعر ابن دراج الأندلسي"، مجلة مؤتة للبحـوث والدراسات، المجلد الرابع، العدد الثاني، 1989: 170؛ وانظـر قـيس النـوري، " الاغتراب – اصطلاحا ومفهوما وواقعا"، مجلـة عـالم الفكـر، وزارة الإعـلام، الكويت، المجلد العاشر، 1979، ع1: 18.

136) التيه :٧٧ .

137) السيد علي شتا، مرجع سابق: 206.

138) قيس النوري مرجع سابق: 16.

139) السيد علي شتا: 220.

140) منيف ، الأخدود : 184.

141) نفسه:١٨٥.

142) نفسه:١٩٠.

143) محمد الشوابكة، "النفط والتحول الاجتماعي دراسة في "مدن الملح" لعبد الرحمن منيـف"، مجلة دراسات، مج ١٩٠، ع١،1992: 288.

144) نفسه:٢٨٩.

145) نفسه:٢٨٩.

146) الأخدود:٣٥٩.

147) نفسه:٣٦٩.

148) نفسه:٣٨٩.

149) الاغتراب في الدراما المصرية(مرجع سبق ذكره): 12.

150) انظر حول ذلك، السيد علي شتا: 216، 340؛ وقيس النوري: 15، وتعد هذه الحالة عند بعض الباحثين مظهرا من مظاهر تحلل المعايير وانقلابها، أو ما اصطلح عليه بـ" اللامعيارية"، انظر قيس النوري: 22.

151) الأخدود: 393.

152) انظر، محمد الشوابكة: "الغربة والاغتراب في شعر ابن دراج": 160، وحول معنى الشعور بالعزلة والاغتراب عن النفس انظر: " الاغتراب والثورة في الحياة العربية"، لحليم بركات، مواقف، ع5، 1969: 22.

153) النفط والتحول الاجتماعي:٢٩٠، وانظر الأخدود: ٣٩٤ .

154) نفسه: ٢٩٠.

155) نفسه:٢٩٠.

156) الأخدود:٣٧٢.

157) نفسه: ٣٧٨ .

158) نفسه:٣٧٨.

159) نفسه:٣٨٠.

160) النفط والتحول الاجتماعي:٢٩٣.

161) الراهب: 12.

162) نفسه:45-46.

163) نفسه: 46.

164) نفسه: 56.

165) الراهب: 80.

166) نفسه: 131.

167) جميعان: 33.

168) نفسه: 22.

169) النفط والتغير الاجتماعي: 313، وانظر: بادية الظلمات:283-285.

170) الراهب: 10-12.

171) نفسه:62.

172) نفسه: 66.

173) نفسه: 125.

174) انظر مشاهد القتل: 146-147، والتناقض بين الدين وأفعال الحاكم: 140، حيث نرى لدى الحاكم مائة مونيكا وديونيكا والبلاد كلها ممنوع فيها العشق والغرام ومبتلاة بالمطوعين، 142، 146.

175) الراهب: 88.

176) نفسه: 88.

177) نفسه: 94.

178) نفسه: 57.

179) التيه: 386.

180) الأخدود: 22.

181)الأخدود: 102.

182)نفسه: 365.

183)نفسه: 126-127.

184)نفسه: 457.

185)السقوط إلى أعلى، (د.ن، د.م) 1973: 33.

186)نفسه: 47.

187)قيس النوري: 14.

188)حجار: 40.

189)نفسه: 175.

190)نفسه: 354.

191)نفسه: 168.

192) نفسه: 168.

193) نفسه: 169.

194) نفسه: 46.

195)نفسه: 47.

196)نفسه: 53.

197)نفسه: 33-34.

198) نفسه: 61.

199)محمد الشوابكة، النفط والتحول الاجتماعي: ٢٩٥.

200)منيف، تقاسيم الليل والنهار:٩.

201)نفسه:٩.

202)نفسه:١٨.

203)انظر تقاسيم الليل والنهار:١٩.

204)منيف، بادية الظلمات:٥٧ .

205)نفسه:٨٢

206)8-تقاسيم الليل والنهار،:36 .

207)منيف، تقاسيم الليل والنهار:١١٣.

208)منيف، التيه:٨٥.

209)منيف، التيه:٨٥.

210)وليد حجار،:٣٣.

211)نفسه:33.

212)منيف، تقاسيم الليل والنهار:١١٣.

213)حجار، السقوط إلى أعلى:٣٣.

214)نفسه:٣٣.

215)نفسه:٣٦.

216)منيف، الأخدود:٦٨.

217)نفسه:٦٨.

218)نفسه:٧٠.

219)حجار،:١٦٨.

220) نفسه:١٦٨.

221) نفسه: ١٦٩.

222) نفسه:١٦٩.

223) منيف، تقاسيم الليل والنهار:١٩.

224) حجار، نفسه:٤٩.

225) نفسه:٤٩.

226) نفسه:٥٠.

227) نفسه:٥٠.

228) منيف، تقاسيم الليل والنهار:٥٩.

229) منار فتح الباب، الخطاب الروائي عند غسان كنفاني،دراسة أسلوبية، ط١، ٢٠٠٣:٢٧٦ .

230) إلياس خوري، الذاكرة المفقودة دراسات نقدية، مؤسسة الأبحاث العربية، ط1 ١٩٨٢:٩٤.

231) صلاح صالح ، الرواية العربية والصحراء، سوريا، ١٩٩٦: 59 .

232) منيف، الأخدود:٢٢.

233) نفسه:٢٢.

234) الراهب، هاني، رسمت خطا في الرمال، ط١، بيروت دار الكنوز الأدبية، ١٩٩٩:٨٠ .

235) منيف، الأخدود:٩٠.

236) نفسه:١١١.

237) نفسه:١١١.

238) الشوابكة، النفط والتحول الاجتماعي:٣١٠.

239) منيف، التيه:١٣-١٧.

240) نفسه:١٣١.

241) نفسه:١٣٣

242) الشوابكة، السابق:٢٩٧.

243) نفسه:٢٩٦.

244) منيف، التيه:٥٤٥.

245) الشوابكة، السابق: ٢٩٧.

246) نفسه:٢٩٧.

247) منيف، التيه :٥٥٢.

248) غسان كنفاني، رجال في الشمس، ط٥، بيروت مؤسسة الأبحاث العربية، ٢٠٠٢: 78

249) صلاح صالح، نفسه:٦١.

250) الشوابكة، النفط والتحول الاجتماعي:٣٠٠.

251) عبد الإله الرحيل، " قراءة في مدن الملح"، مجلة المعرفة، 275/23(1985): 175 .

252)الشوابكة ، النفط والتحول الاجتماعي: ٣٠٨.

253)منيف ، تقاسيم الليل والنهار: ٦٧.

254)منيف ، التيه: ١١٩.

255) نفسه: ١٢٨.

256) منيف ، بادية الظلمات:٩٥.

257) منيف ، الأخدود:٧٢.

258) نفسه:٧٣.

259) نفسه:٧٣.

260) نفسه:٧٤.

261) منيف، بادية الظلمات:٩٨.

262) منيف، الأخدود:٨٠.

263) منيف،بادية الظلمات:٩٩.

264) نفسه:٩٩.

265) منيف ، الأخدود:٨٥.

266) منيف ، تقاسيم الليل والنهار:50.

267) السقوط إلى أعلى:157.

268) الراهب: 69.

269)نوال السعداوي ، الحب في زمن النفط ، القاهرة ، 1993، ط1:6.

270) نفسه:13.

271)نفسه:10.

272)نفسه:18.

273)نفسه:22.

274)نفسه:32.

275)نفسه :33.

276) نفسه :33.

277) نفسه:51.

278) مجموعة من الكتاب،المرأة العربية بين الواقع وتطلعات التحرر،ط1، بيروت1999: 208 نقلا عن سلوى الخماش ،المرأة العربية والمجتمع التقليدي المتخلف، بيروت،دار الحميمة،1973: المقدمة.

279)نفسه:208.

280) سمير عبده ، المرأة العربية بين التخلف والتحرر، ط1، دار الأفق. الجديدة، بيروت، 1980 :104 .

281) منيف،الأخدود:85.

282)نفسه:84.

283)منيف ، المنبت:115.

284)نفسه:146.

285)منيف ، الأخدود:35.

286)نفسه:47.

287)نفسه:48.

288)نفسه:49.

289)نفسه: 49.

290)نفسه:50.

291)نفسه:58.

292)منيف ، المنبت:47.

293)الراهب، السابق:69.

294)نفسه:69.

295)نفسه:69.

296)السعداوي، السابق:83.

297)نفسه:83.

298)حجار، السابق:55.

299)الراهب، السابق:7.

300)حجار، السابق:15.

المراجع

الباروي محمد. 1984، جدلية الشرق والغرب في الرواية العربية ، مجلة **الفكر**، تونس، س3، ع29، 1983 ؛ وس4، ع29،.ص4،3

بركات، حليم.1969 ، الاغتراب والثورة في الحياة العربية، **مواقف**، ع5، ص22.

بركات، حليم.2000، **المجتمع العربي في القرن العشرين** ، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1 ،.

تودوروف، تزفتيان.،1987 **الشعرية**، ت: شكري المبخوت ورجاء بن سلامة، دار توبقال، المغرب.

تيمور، محمود.1958، **شمروخ**، دار الهلال، القاهرة.

جبرا، جبرا إبراهيم.1978، الحبّ والموت والطبيعة في النهايات، مقالة في **ينابيع الرؤيا**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت،ص 39 .

جميعان، محمد سلام.1987، **قدح من نفط** ، مركز الدراسات والترجمة ، عمان .

حجار، وليد .1973، **السقوط إلى أعلى**، (د.ن).

حرب، طلال.1980، البطل الرائي الشرقي والغربم. **الآداب**، ع9،ص32.

الحميدي، أحمد جاسم. **البطل الملحمي في روايات عبد الرحمن منيف**،ج1، الأهالي للطباعة والنشر، دمشق.

الخشاب ،أحمد.التفكير الاجتماعي دراسة تكاملية للنظرية ،دار النهضة .

الخطيب ،محمد كامل.1976، المغامرة المعقدة: مقدمة في تاريخ العلاقة بين المجتمع العربي والغرب كما يظهرها الفن الروائي، منشورات وزارة الثقافة، دمشق.

الخماش سلوى.1973، المرأة العربية والمجتمع التقليدي المتخلف، بيروت،دار الحميمة،.

خوري، الياس.1982، الذاكرة المفقودة دراسات نقدية، مؤسسة الأبحاث العربية، ط1.

الراهب هاني.1999، **رسمت خطا في الرمال** ، الكنوز الأدبية ، بيروت ، ط1 .

الرحيل عبد الإله.1985، قراء في مدن الملح، مجلة المعرفة، عدد275،س23، دمشق، كانون الثاني، ص23 ،275،251،175.

السحّار،(د.ت) ،عبد الحميد جودت. جسر الشيطان ، القاهرة، مكتبة مصر.

السعداوي، نوال.1993، الحب في زمن النفط ، القاهرة ،ط1.

سليمان، نبيل. ،1985التعبير الروائي عن إشكالية اللقاء بالغرب الاشتراكي م. المعرفة، دمشق، ع282 ،ص24

السيد، حسن.1986، الاغتراب في الدراما المصرية المعاصرة بين النظرية والتطبيق(1960-1969)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.

شتا السيد علي. الاغتراب من منظور علم الاجتماع، عالم الكتب(بيروت)، 1984.

شناق ،عبد الحفيظ "التحضر وتأثيره على القيم والاتجاهات الدينية " ، مؤسسة دار الفكر .

الشوابكة ، محمد. "الإنسان والطبيعة في رواية "النهايات" لعبد الرحمن منيف، جدلية العلاقة وشعرية الوصف" مجلة المنارة، المجلد 4، العدد3، 1999.

الشوابكة ، محمد. "دلالة المكان في مدن الملح لعبد الرحمن منيف"، أبحاث اليرموك، م٩، ع2، 1991: 21 ،29 ، 31 ، 35

الشوابكة ، محمد. " الغربة والاغتراب في شعر ابن دراج الأندلسي"، مجلة مؤتة للبحوث والدراسات، المجلد الرابع، العدد الثاني، 1989 ،ص 18،160، 170 .

الشوابكة ، محمد. "النفط والتحول الاجتماعي دراسة في "مدن الملح" لعبد الرحمن منيف"، مجلة دراسات، مج ١٩، ع1992،١. ص 290 ،295، 310،308،300.

صالح، صلاح، الرواية العربية والصحراء، سوريا، ١٩٩٦.

صالح، فخري. " الرواية العربية والإفريقية: الالتقاء بالغرب ...واكتشاف الهوية الثقافية "، م. **الكاتب العربي**، دمشق، ع6، 1983.

ضمرة، يوسف. " التقاليد الملحمية في رواية مدن الملح "، م. الموقف الأدبي، ع191 – 192، س16، دمشق، آذار ونيسان، 1987 ؛ و م. أفكار، ع92، عمان، تموز – آب، 1989، ص 34 ،

العاني ، شجاع مسلم. الرواية العربية والحضارة الأوروبية، وزارة الثقافة والفنـون، بغداد، 1979.

العبد الله ، يحيى. الاغتراب، دراسة تحليلية لشخصيات الطاهر بن جلـون الروائيـة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 2005.

عبده، سمير، المرأة العربية بـين التخلـف والتحـرر، ط1، دارالأفـق. الجديـدة، بيروت،1980. – العتابي، سعد عبد الحسين. الملحمية فـي الروايـة العربيـة المعاصرة، ط١ دار الشؤون الثقافية العامة بغداد ٢٠٠١، 91 .

عثمان، اعتدال. مقالة في الشعر ومتغيرات المرحلة، لعنـاد غـزوان وآخـرين، دار الشؤون الثقافية والعامة، "آفاق عربية"، بغداد، ط1، 1986.

فتح الباب، منار، الخطاب الروائي عند غسان كنعاني،دراسة أسلوبية، ط١، ٢٠٠٣.

-فضل، صلاح. بلاغة الخطاب وعلم النص، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الـوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، آب، 1997.

القاسم، سيزا. بناء الرواية،دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت،ط1، 1985.

القاضي، محمد. الأرض في شعر المقاومة الفلسطينية، الدار العربية للكتاب، ليبيـا– تونس، 1982.

قطان، محمد. الدراسات الاجتماعية في المجتمعات البدوية ، دار البلاد .

غسان كنفاني، رجال في الشمس، ط٥، بيروت مؤسسة الأبحاث العربية، ٢٠٠٢.

لحمداني، حميد. بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط 2، 1993.

المرزوقي، سمير و شاكر، جميل. مدخل إلى نظرية القــصة تحلــيلا وتطبيقــا، دار الشؤون الثقافية العامة (آفاق عربية)، بغداد، والدار التونسية للنــشر، تــونس، 1986.

المعوش ، سالم. صورة الغرب في الرواية العربية، مؤسسة الرحاب الحديثة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1998، وغيرها.

منيف،عبد الرحمن.1992، الكاتب والمنفى- هموم وآفاق الرواية العربية، دار الفكــر الجديد، .

منيف،عبد الرحمن.1992 ، التيه،ط4 ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ،

منيف،عبد الرحمن.1992، الأخدود،ط4، المؤسسة العربية للدراسات والنشر،.

منيف،عبد الرحمن.1992 ، تقاسيم الليل والنهار،ط4 ،المؤسسة العربيــة للدراســات والنشر،

منيف،عبد الرحمن. 1992 ، المنبت ،ط4المؤسسة العربية للدراسات والنشر

منيف،عبد الرحمن،1992. بادية الظلمات، ط4 المؤسسة العربية للدراسات والنشر

النصير، ياسين ، 1986. إشكالية المكان في النص الأدبي، دار الشؤون الثقافية الغامة، بغداد، ط1.

النوري ، قيس،1979، الاغتراب – اصطلاحا ومفهوما وواقعا"، مجلة عالم الفكــر، وزارة الإعلام، الكويت، المجلد العاشر، ع1،ص 16 ، 18،

يوسف، سهير عبد العزيز.1991، الاستمرار والتغير في البناء الاجتماعي في البادية العربية ، ط1 ، دار المعارف .